التعليمُ الدينى فى الأزهر

٥٠

فى مصر لون من ألوان التعليم العالى لابد من أن نقف عنده وقفة قصيرة لتكون دورتنا حول الثقافة فى مصر محيطة بها من جميع أقطارها . وهو التعليم الدينى فى الأزهر الشريف . وقد عرضنا للأزهر أثناء هذا الحديث غير مرة وأطلنا الوقوف عنده أحيانًا ولكننا نحب أن نسجل هنا أننا مؤمنون بأن مهمة الأزهر فى تكوين الثقافة أعظم خطرًا وأبعد أثرًا فى حياة مصر خاصة وفى حياة العالم الإسلامى عامة مما يظن الأزهريون أنفسهم لأسباب مختلفة . منها أن الأزهر أكثر معاهد التعليم فى مصر وفى الشرق الإسلامى حظًا من الطلاب ، فيجب أن تظفر فيه هذه الكثرة الضخمة من الشباب المصريين والمسلمين بثقافة ليست أقل من الثقافة التى يظفر بها الشباب فى الجامعة وفى مدارس التعليم العام لا من جهة الكم ولا من جهة الكيف كما يقال . ومنها أن الأزهر معهد الدراسات الدينية الإسلامية وهو من هذه الجهة شديد الاتصال ويجب أن يكون شديد الاتصال بطبقات الشعب على اختلافها وتباينها . فهو إذًا من أهم المصادر للثقافة فى مصر والشرق ، ويجب أن تكون الثقافة التى تصدر عنه وتتغلغل فى طبقات الشعب كلها ثقافة راقية ممتازة ملائمة لحياة الشعب وحاجاته لا مناقضة لهذه الحاجات وتلك الحياة . ومنها أن الأزهر مظهر من مظاهر المجد المصرى القديم حمل لواء المعرفة فى مصر وفى الشرق الإسلامى قرونًا متصلة فيجب أن يكون حاضره ومستقبله ملائمين لماضيه المجيد ويجب أن يكون عنوانا للمجد المصرى الحديث كما كان عنوانا للمجد المصرى القديم . وسبيل ذلك أن تكون الثقافة التى تصدر عنه والمعرفة التى تطلب فيه ملائمتين أشد الملاءمة لحاجات الناس وآمالهم فى هذا العصر الحديث .

ومنها أن الأزهر مصدر الحياة الروحية للمسلمين وهو من هذه الجهة مطالب بما لا تطالب به المعاهد الأخرى . مطالب بأن يشيع فى نفوس الناس الأمن والرضى والأمل والرجاء ويعصمهم من الخوف والسخط ومن اليأس والقنوط وهو لن يبلغ منهم ذلك إلا إذا لاءم بين الثقافة التى تصدر عنه فتنتشر فى أقطار الأرض الإسلامية وبين نفوس المسلمين وقلوبهم كما يكونها العصر الحديث وكما يصوغها التعليم المدنى الحديث .

وليس من الخير أن يكون الأزهر حربا على الحياة الحديثة فإن هذه الحرب لا تجدى ولا تفيد وإنما الخير والواجب أن يكون الأزهر ملطفا للحياة الحديثة مخففا لأثقالها ملائمًا بينها وبين ما يأمر الله به من الخير والمعروف مباعدا بينها وبين ما ينهى الله عنه من الشر والمنكر . وذلك لا يكون إلا إذا عرف رجال الدين حياة الناس كما يحيونها وأتقنوا العلم بأسرارها ومشكلاتها وما تجر على الناس من شر وما تدفعهم إليه من إثم . وسبيل ذلك أن يتثقف الأزهر بالثقافة الحديثة كما يتثقف بها غيره من المعاهد ، وأن يمتاز بعد هذا بما لا تمتاز به المعاهد الأخرى من هذه الثقافة الدينية الخالصة بحيث إذا اتصل رجاله بطبقات الناس لم يناقضوهم ولم يباينوهم ولم يجدوا مشقة فى الوصول إلى قلوبهم والانتهاء إلى نفوسهم والتأثير فى هذه النفوس وتلك القلوب .

والشر كل الشر أن يتحدث رجل الدين إلى الناس فلا يفهمون عنه لأنه قديم وهم محدثون وأن يتحدث الناس إلى رجل الدين فلا يفهم عنهم لأنهم محدثون وهو قديم . ولا ينبغى أن يغتر الأزهر لأن الناس يسمعون له الآن ويفهمون عنه بعض الشيء . فكثرة المصريين لا تزال متأثرة بعقلية القرون الوسطى . ولكن طبيعة الحياة ستخرجها غدا وبعد غد عن هذا الطور وستصوغ الأجيال الناشئة والأجيال المقبلة صيغة حديثة أوربية . فلابد من أن يجارى الأزهر هذا التطور ليكون اتصاله بالأجيال الناشئة والأجيال المقبلة أجدى وأقوى من اتصاله بالأجيال الماضية والأجيال الحاضرة ، ومنها أخيرا أن الأزهر مشرق النور الدينى للبلاد الإسلامية كلها . وأخص ما يمتاز به الإسلام أنه دين الحرية والعلم والمعرفة ، وأنه دين الحرية والعلم والمعرفة كما تفهمها الأجيال على اختلافها لا كما فهمها جيل بعينه وكما تحققها العصور على اختلافها لا كما حققها عصر بعينه .

فالإسلام دين التطور والطموح إلى المثل العليا فى الحياة الروحية والمادية جميعا . ويجب أن يكون رجاله الناشرون له الذائدون عنه الداعون إليه ملائمين كل الملاءمة لطبيعته هذه السمحة التى تشجع التطور ولا تمانعه وتؤيد الطموح ولا تأباه . وسبيل ذلك ألا تكون محافظة الأزهر على القديم مانعة له من الأخذ بأسباب الحديث .

كل هذه الأسباب يحقق ما قدمناه من أن مهمة الأزهر أخطر جدا مما يظن الأزهريون . وإذا فلابد من أن تكون سيرة الأزهـــر ونظم التعليم فيه ملائمة لهذه المهمـــة الخطيرة . وهذا يقتضى أولا أن يعـدل الأزهر عدولا تاما عما دأب عليه من الانحياز إلى نفســه والعكوف عليها والانقطاع عن الحياة العامة . وقد يقال إن الأزهر قد أخذ يترك هذه السيرة

ويتصل بالحياة العامة ويأخذ بحظوظ حسنة من الثقافات الحديثة على اختلافها . وهذا صحيح فى ظاهره ولكنه فى حقيقة الأمر غير صحيح . فالأزهر مازال منحازًا إلى نفسه مستمسكا بهذا الانحياز حريصا عليه . وهو من أجل هذا الانحياز نفسه يريد أن يتصل بالحياة العامة على النحو الذى نراه الآن . يريد أن تكون له نظمه الخاصة وإجازاته الخاصة وطرقه الخاصة فى الحياة والتعليم ويريد مع ذلك أن يفرض نفسه على الحياة العامة فرضا وأن يفرض نفسه باسم الدين وما هكذا يكون الاتصال الصحيح بالحياة العامة والاشتراك فيها . إن الأزهر حين يسلك طريقه التى يسلكها فى هذه الأيام لا يشارك فى الحياة العلمية والعملية وإنما ينافس فيها ويريد الاستئثار بها أو ببعض فروعها دون غيره من المعاهد . تنشىء الدولة معاهد التعليم فينشىء الأزهر معاهد على نحو ما تنشىء الدولة . وتنشىء الدرجات الجامعية فينشىء الأزهر الدرجات الجامعية ثم يقول للدولة هذه معاهدى تشبه معاهدك ، وهذه درجاتى وإجازاتى تشبه درجاتك وإجازاتك فينبغى إذا أن يكون الشباب الذين يخرجون من معاهدى ويظفرون بإجازاتى ودرجاتى كالشباب الذين تخرجينهم وتمنحينهم الاجازات والدرجات ويجب أن يشغلوا من المناصب ما يشغله هؤلاء وأن ينهضوا من أعباء الحياة العامة بما ينهض به هؤلاء . فإن لم تفعلى فأنت ظالمة لرجال الدين وظالمة للدين نفسه فيهم .

وينتج عن هذا نظام ثنائى غريب فى التعليم أولا وفى إجازته ودرجاته ثانيا ، وفى شغل مناصب الدولة إن تم للأزهر ما يريده ثالثا ، وهذا شىء لا يرى فى غير مصر ولا يلائم عقلا ولا نظامًا . إنما طبيعة الاصلاح أن يمتاز الأزهر أولا بتعليمه الدينى وأن يمتاز بهذا التعليم الدينى من الناحيتين العملية والعلمية فيهيىء شبابه للنهوض بالأعباء الدينية التى تحتاج إليها الحياة العامة من جهة وللتفرغ للبحث العلمى الخالص فى شؤون الدين من جهة أخرى . هذا النحو من الامتياز بالتعليم الدينى والاستئثار بالمناصب الدينية فى الحياة العامة لا غبار عليه ولا جدال فيه . ومن طبيعته أن يمتاز الأزهر بإجازاته ودرجاته الدينية التى تؤهل ، لا نقول لشغل المناصب الدينية العامة ، بل للاستباق إلى هذه المناصب كما قدمنا فى شأن الجامعة .

فأما إذا أراد الأزهر أن يشارك شبابه فى غير هذه المناصب الدينية من الحياة العامة فحقه فى ذلك واضح لا جدال فيه وثابت لا يمكن إنكاره لأن شبابه مصريون عليهم من الواجبات ولهم من الحقوق مثل ما على غيرهم وما لهم من الحقوق والواجبات . ولكن

ينبغى أن يسلكوا إلى هذه الأعباء طرقها الطبيعية وأن يدخلوها من أبوابها المألوفة أى ينبغى أن يتعلموا فى معاهد الدولة المدنية ويظفروا بإجازاتها ودرجاتها المدنية ويسابقوا غيرهم من إخوانهم المدنيين إلى المناصب العامة . ذلك أحرى أن يلغى هذا النظام الثنائى الغريب وأن يحقق الوحدة العقلية فى مصر وأن يحتفظ لسلطان الدولة بما ينبغى له من السيطرة على الشؤون العامة جميعا وعلى مناصب الدولة بنوع خاص . وهو أحرى أن يصل الأزهر والأزهريين بالحياة المصرية اليومية ويمزج الأزهر والأزهريين بهذه الحياة مزجا .

ولنضرب لذلك أمثالا توضحه . فالأزهر يريد أن يخرج المعلمين فى مدارس الدولة وهذا حق له لا ينبغى أن ينكره عليه أحد . ولكن بشرط أن يتعلم طلابه كما يتعلم غيرهم فى معاهد الدولة وأن يظفروا بما يظفر به غيرهم من الاجازات والدرجات . فإذا أرادوا أن يعلموا اللغة العربية مثلا فطريقهم إلى ذلك الآن دار العلوم وكلية الآداب ومعهد التربية ، لا كلية اللغة العربية الأزهرية . وإن أرادوا أن يعلموا التاريخ أو الجغرافيا أو الطبيعة أو الكيمياء فطريقهم إلى ذلك كلية الآداب وكلية العلوم ومعهد التربية . وإن أرادوا أن ينهضوا بأعباء القضاء أو الطب أو الهندسة فطريقهم إلى ذلك كلية الحقوق والطب والهندسة . فأما أن تنشأ فى الأزهر كليات وأن تمنح هذه الكليات درجات لا علم للدولة بها ولا سلطان للدولة عليها ثم يفرض المتخرجون فى هذه الكليات على الحياة العامة فرضًا فهذا هو الذى لا يفهم ولا يمكن أن يساغ فى بلد متحضر .

وقد يقال إن هذا النحو من النظام لا ينتج إلا الفصل بين الأزهر وبين الحياة العامة لأن الأزهريين لا يستطيعون أن يتخرجوا فى الأزهر وفى الكليات وفى المعاهد الأخرى . وهذا هو الذى نعارض فيه أشد المعارضة وننكره أشد الانكار . فرجال الدين فى البلاد الأوربية يتخرجون فى معهدهم الدينى بعد درس عميق وامتحان دقيق وحياة أشد ألف مرة ومرة من حياة الأزهريين ، ولا يمنعهم هذا من أن يتخرجوا فى الجامعات والمعاهد المدنية ويظفروا باجازاتها ودرجاتها ويسابقوا زملاءهم المدنيين إلى المناصب ويظفروا بهذه المناصب أيضًا .

وقد كتبت غير مرة فى نشاط رجال الدين الأوربيين ونوهت ببراعتهم وتفوقهم فى العلوم المدنية بل فى الفنون التطبيقية على اختلافها . ولا تكاد ترى علمًا من العلوم أو فنًا من الفنون إلا وقد نبغت فيه طائفة ممتازة من القسيسين والرهبان . فما بال الأمور

تسهل بالقياس إلى رجال الدين فى أوربا وتعسر بالقياس إلى رجال الدين فى مصر ؟ وفى مصر نفسها أفراد تخرجوا فى الأزهر وتخرجوا فى بعض المعاهد والكليات لم تمنعهم أزهريتهم من التخرج فى الجامعة ، ولم تمنعهم جامعيتهم من التخرج فى الأزهر . وأنا مؤمن بأن من أيسر الأشياء أن يلائم الأزهر بين حياته الخاصة وبين حاجات الحياة العامة ، فيمكن طلابه من الاتصال بكليات الجامعة على اختلافها ، كما يمكن طلاب الجامعة أنفسهم من الاتصال بالأزهر لا ليزاحموا أهله على المناصب الدينية بل ليتزودوا بحظوظ من علوم الدين . وقد قدمت أن إشراف الدولة واجب على التعليم الأولى والثانوى فى الأزهر للأسباب التى بسطتها . وأضيف الآن أن هذا الاشراف نفسه قد يقارب بل سيقارب بين التعليم العام الأزهرى والتعليم العام المدنى وسيجعل الشهادة الثانوية للأزهر معادلة للشهادة الثانوية المدنية ، ويومئذ تفتح أبواب الجامعة والمعاهد العالية للأزهريين ، كما تفتح أبواب الأزهر للجامعيين ويومئذ تمتزج الثقافة الدينية بالثقافة المدنية امتزاجا حسنا مفيدا ويومئذ تفتح أبواب الأزهر ونوافذه للهواء الطلق والنور المشرق ويلتقى العلم والدين لقاء حسنا لا ينتج لمصر والمسلمين إلا خيرا .

وإذا صدق ما انتهى إلى من الاخبار فقد فكر وزير المعارف هيكل باشا فى شىء كهذا وكتب إلى الأزهر يطلب إليه البحث فى توحيد التعليم الدينى والمدنى فى المرحلة الأولية والثانوية . فلم يرد الأزهر أن يسمع له ولا أن يستجيب لدعائه . وقد كان مع ذلك دعاء إلى الحق والخير ومصلحة مصر فى الدين والدنيا جميعًا .

وإذا هدى الله الأزهر إلى هذا الصراط المستقيم وتمت المقاربة بين التعليم العام المدنى والدينى كانت أمور التعليم العالى فى الأزهر هينة يسيرة كأمور التعليم العالى فى الجامعة . فللأزهر استقلاله العلمى والمالى والادارى . وربما كان حظه من هذا الاستقلال أعظم من حظ الجامعة كثيرا . وقد يجد الأزهر من المشقة أكثر مما تجد الجامعة فيما تواجه من المشكلات لأنه ما يزال فى حاجة إلى الفنيين فى شؤون التعليم العالى .

ولكن الفنيين المدنيين الذين يعينونه الآن على سلوك الطريق التى يسلكها فى هذه الأيام سيجدون لذة ومتعة فى إعانته على سلوك الطريق المثلى وستكون معونتهم منتجة مجدية على حين أنها الآن لا تنتج شيئًا ولا تجدى نفعًا .

التعليمُ الدينى لِـلأقْبَـاط

٥١

وإعداد رجال الدين المسيحى لأخواننا الأقباط محتاج إلى عناية خاصة من الدولة ، ومن الأقباط أنفسهم ، لأسباب طبيعية يسيرة أيضًا . فإن الأقباط مصريون يؤدون الواجبات الوطنية كاملة كما يؤديها المسلمون ، ويستمتعون بالحقوق الوطنية كاملة كما يستمتع بها المسلمون . ولهم على الدولة التى يؤدون إليها الضرائب وعلى الوطن الذى يذودون عنه ، ويشاركون فى العناية بمرافقة ما للمسلمين من الحق فى العناية بتعليمهم وتقويمهم وتثقيفهم على أحسن وجه وأكمله .

وما نظن أن أحدًا يستطيع أن ينكر ذلك أو يجادل فيه بل ما نظن أن أحدًا أنكر ذلك أو جادل فيه . وقد قرر الدستور المصرى الذى نؤمن به جميعًا أن المصريين سواء فى الحقوق والواجبات ، لم يفرق فى هذه المساواة بين المسلمين وغير المسلمين ، وإذا كنا قد لاحظنا فيما مضى من هذا الحديث أن الظروف المصرية الخاصة لا تسمح فى هذه الأيام ولا ينتظر أن تسمح فى المستقبل القريب باعفاء الدولة من العناية بالتعليم الدينى فى بعض مراحل التعليم ، فإننا لم نلاحظ ذلك بالقياس إلى المسلمين وحدهم وإنما لاحظناه بالقياس إليهم وإلى غيرهم من أبناء مصر وما دام القيام بالواجبات الوطنية هو مدار الاستمتاع بالحقوق الوطنية وجودًا وعدمًا كما يقول الفقهاء . وما دام الأقباط يستوون مع غيرهم فى أداء الواجبات الوطنية بغير استثناء ، فلابد من أن يساووهم فى الاستمتاع بالحقوق الوطنية بغير استثناء أيضا . والتعليم من هذه الحقوق . فلابد إذا من أن يشترك المصريون جميعا فيما يمكن أن يشتركوا فيه من مقومات الوحدة الوطنية ، ولابد إذا من أن تنفرد طوائفهم الدينية بما لابد من أن تنفرد به من التعليم الدينى الخالص .

ولست أرى بأسا بهذا النوع من الانفراد والافتراق . فهو لا يمس الوحدة الوطنية ولا يعرضها لخطر ما ، ولعله يعين على تقويتها وتذكية جذوتها .

ولعل الاختلاف بين المسلمين والأقباط فى الدين أن يكون أشبه بهذا الاختلاف الذى يكون بين الأنغام الموسيقية فهو لا يفسد وحدة اللحن . وإنما يقويها ويذكيها ، ويمنحها

بهجة وجمالا . وما أريد أن أدخل فى تفصيل التعليم الدينى للأقباط فى بعض مراحل التعليم كيف يكون وعلى أى نحو ينظم ، فهذا شىء تستطيع الدولة أن تنتهى به إلى غايته مستشيرة فى ذلك القادرين على أن يشيروا عليها فيه من المثقفين المدنيين والدينيين بين الأقباط أنفسهم .

وإنما أريد أن أصل إلى تقرير ما بدأت به هذا الفصل من وجوب العناية بالاعداد الصالح لرجال الدين المسيحيين فهم سيتصلون بالصبية والشباب من الأقباط يعلمونهم دينهم ويفقهونهم فيه . فلابد من أن تتحقق الملاءمة بينهم وبين المعلمين المدنيين لتحقيق الملاءمة بين الثقافة الدينية التى يحملونها إلى هؤلاء الصبية والثقافة المدنية التى يحملها إليهم المعلمون المدنيون . وحتى يعصم الصبية من التناقض الشنيع الذى يكون بين ما يلقيه إليهم المعلم وما يلقيه إليهم القسيس إن وكل هذا التعليم إلى القسيسين . والقسيسون بعد هذا سيتصلون بطبقات الطائفة القبطية على اختلاف مراكزها الاجتماعية وعلى اختلاف حظوظها من الثقافة . واتصال القسيسين بالمؤمنين من الأقباط أشد من اتصال رجال الدين بطبقات المسلمين كما هو معروف .

فلابد إذا من أن يثقف هؤلاء القسيسون تثقيفا ملائما للحياة الحديثة وللعصر الحديث ، حتى لا يحملوا إلى الناس باسم الدين ثقافة تضطرهم إلى الحيرة والاضطراب والعجز عن احتمال أعباء الحياة المدنية .

والكنيسة القبطية مجد مصرى قديم ، ومقوم من مقومات الوطن المصرى . فلابد من أن يكون مجدها الحديث ملائمًا لمجدها القديم ، ولا ينبغى أن نخلى بين رجالها وبين هذه المحافظة الخاطئة التى قد تغض من هذا المجد وتضع من قدره . وما ينبغى أن نقارن بين رجال الكنيسة القبطية ورجال الكنائس الأخرى فنرى هذه الفروق التى أقل ما توصف به أنها لا تلائم الكرامة المصرية ولا ينبغى أن يرضى عنها المصريون .

وكما أن الأزهر مصدر الثقافة للعالم الإسلامى فينبغى أن تصدر عنه لهذا العالم ثقافة تلائم حاجاته الحديثة ، فالكنيسة القبطية مصدر الثقافة الدينية لأوطان أخرى غير مصر فيجب أن تصدر لهذه الأوطان ثقافة دينية تلائم حاجاتها الحديثة أيضًا .

ونتيجة هذا كله أن الدولة المصرية والكنيسة القبطية يجب أن تتعاونا على إصلاح التعليم الدينى المسيحى وتنظيم المعاهد التى تخرج القسيسين والرهبان ، والملاءمة بين هذه المعاهد الدينية الخالصة ومعاهد التعليم المدنى بحيث تفتح لطلاب المعاهد الدينية

المسيحية أبواب الحياة المدنية إن أرادوا أن ينهضوا بأعبائها كما طلبنا ذلك بالقياس إلى الأزهر والأزهريين .

ولابد من أن أصارح المثقفين من الأقباط بأنهم مقصرون أشد التقصير فى ذات تعليمهم الدينى وبأن كل شىء يمكن أن يفهم إلا هذا الفرق الشنيع بينهم وبين قسيسيهم ورهبانهم فى الثقافة . ولقد دعتنى الظروف الحسنة والسيئة كما تدعو غيرى من المصريين إلى مشاركة بعض الأصدقاء من الأقباط فيما يلم بهم من الخير والشر وشهود بعض حفلاتهم الدينية فى الكنائس وفى الفنادق وفى الدور . فلست أدرى كيف أصف هذا الألم الذى يثيره فى نفسى الاستماع لصلواتهم يتلونها فى لغة عربية محطمة أقل ما توصف به أنها لا تلائم كرامة الدين مهما يكن ولا تلائم ما ينبغى للمصريين جميعا من الثقافة اللغوية . ولقد عجزت أحيانًا عن مقاومة هذا الضيق فصارحت به بعض كبار الأقباط وألححت عليهم فى وجوب العناية بالترجمة الصحيحة النقية لكتبهم المقدسة إلى اللغة العربية وفى تعويد القسيسين النطق الصحيح النقى بهذه اللغة .

فليست اللغة العربية لغة المسلمين وحدهم ولكنها لغة الذين يتكلمونها مهما تختلف أديانهم . وما دام الأقباط مصريين وما دامت اللغة العربية مقومًا من مقومات الوحدة المصرية والوطن المصرى فلابد من أن يتثقف بها رجال الدين من الأقباط كما يتثقف بها رجال الدين من المسلمين . وأنا أعلم أن اللغة العربية ليست هى اللغة الأولى للتوراة والانجيل ولكنى أعلم أن الانجليزية والفرنسية والألمانية ليست هى اللغات الأولى للتوراة والانجيل ومع ذلك فالتوراة والانجيل قد ترجما إلى هذه اللغات تراجم لا أقول إنها صحيحة فحسب بل أقول إنها رائعة أيضا . بل أنا أعلم أن النص الأول للتوراة والانجيل لم يكن لاتينيا ولا يونانيًا . ومع ذلك فترجمته إلى هاتين اللغتين لا غبار عليها . وجملة القول إن هناك أمرين لابد من أن يستقرا فى نفوس المصريين جميعا : أحدهما أن الأقباط مصريون فيجب أن يثقفوا فى أمر دينهم ودنياهم كما يتثقف المصريون . والثانى أن اللغة العربية هى اللغة الوطنية لمصر فيجب أن يكون حظ الأقباط من إجادتها وإتقان العلم بها والقدرة على استعمالها كحظ غيرهم من المصريين .

ليستِ الثقَافة مَحصُورَةً فى المَدَارِس والمعَاهِد

٥٢

وإذا نظمت مصر شؤون التعليم المدنى والدينى على هذه الأنحاء التى بيناها فى كل ما قدمنا من الفصول فلا ينبغى أن ترضى ولا أن تطمئن ولا أن تخدع نفسها ولا أن تظن أنها أدت كل ما يجب عليها للثقافة . فإنها إن نهضت بكل ما طلبنا إليها أن تنهض به لم تتجاوز أن تؤدى ما عليها من الواجب لنوع بعينه من أنواع الثقافة الرسمية المنظمة . وهناك واجبات أخرى يجب أن تؤديها مصر دولة وشعبًا لأنواع أخرى من الثقافة ليست محصورة فى المدارس ولا مقصورة على معاهد التعليم .

وليس يكفى أن تتعاون الدولة والشعب على تعليم أبناء الشعب وتثقيفهم وتخريجهم فى المعاهد والمدارس ومنحهم الدرجات والاجازات وتهيئتهم لاستقبال الحياة واحتمال أثقالها ، بل لابد من أن تتعاون الدولة والشعب على أشياء أخرى ليست أقل خطرًا ولا أهون شأنًا من أمور التعليم . لابد من أن تتعاون الدولة والشعب على تمكين المثقفين من أن ينتجوا فيضيفوا إلى الثقافة ويجددوها ويشاركوا فى تنمية الثروة الإنسانية من العلم والفلسفة ومن الأدب والفن . وفى تمكين الإنسانية من الانتفاع بما تنتجه المعرفة فى الحياة العملية اليومية . ولابد من أن يتعاون الشعب والدولة على نشر أعظم حظ ممكن من الثقافة فى طبقات الشعب ، على أن تكون هذه الثقافة التى تنشر فى طبقات الشعب واسعة عميقة منوعة بحيث تتحقق الصلة العقلية والقلبية بين صفوة الشعب الممتازين وبين غيرهم من الطبقات التى تصرفها الحياة اليومية عن الفراغ للمعرفة . ولابد من أن يتعاون الشعب والدولة على أن تتجاوز الثقافة الوطنية حدود الوطن فتغذو أمما أخرى قد تحتاج إلى هذا الغذاء المصرى وتتصل بأمم أخرى راقية قد لا تكون محتاجة إلى ثقافتنا المصرية ، ولكننا نحن محتاجون إلى أن تعترف لنا هذه الأمم بأننا لسنا خاملين ولا خامدين ولا قاعدين ولا عيالا عليها .

ولابد من أن يتعاون الشعب والدولة على تحقيق الصلة المنظمة الخصبة المنتجة بين مصر وبين الثقافات الأجنبية على اختلافها وتباين لغاتها ومناهجها . فإذا كان الاستقلال

السياسى لا يقتضى العزلة المطلقة ، ولا يتحقق إلا إذا قام على تبادل المنافع بين الدول ، وإذا كان الاستقلال الاقتصادى لا سبيل إليه إلا إذا تحقق التعاون وتبادل المنافع بين الدول والشعوب فى شؤون المال والاقتصاد . فالاستقلال الثقافى لا معنى له إلا إذا كان أخذًا وإعطاء : أخذًا لما تنتجه الأمم الأخرى من أنواع المعرفة ، وإعطاء لما ننتجه نحن من أنواع المعرفة . ومن المحقق أننا قد نستطيع منذ الآن أن نشارك فى ترقية الحضارة وتثبيت السلم بما ننتج فى عالم السياسة والاقتصاد ، فآراؤنا فى السياسة قد تسمع فى بعض البلاد وقد يأخذ بها بعض الشعوب . ونحن عنصر ذو خطر فى التوازن السياسى فى البحر الأبيض المتوسط . وسنكون غدا أو بعد غد أمناء على طريق المواصلات بين الشرق والغرب . ونحن نصدر ونستورد من الغلات ما يجعل مركزنا الاقتصادى فى الحياة العالمية ذا خطر لا بأس به .

أقول إن من المحقق أننا نستطيع منذ الآن أن نشارك مشاركة قيمة فى الحياة السياسية والاقتصادية وأن حظنا من هذه المشاركة سيقوى من يوم إلى يوم ، ولكن مشاركتنا فى الحياة الثقافية لا تكاد تذكر لأن حظنا من الثقافة لا يكاد يذكر . وستظل مشاركتنا فى الحياة الثقافية ضئيلة وقتًا يختلف قصرًا وطولاً باختلاف ما نبذل من جهد وما نأخذ به أمور الثقافة من جد . بل أنا أخشى أشد الخشية أن يكون تقصيرنا فى ذات الثقافة شديد الخطر على مكانتنا السياسية والاقتصادية ، لأن الفوز فى السياسة والاقتصاد لا يتأتى للأمم الجاهلة ولا للشعوب الغافلة ولا للدول التى لا تمنح الثقافة من عنايتها إلا حظا يسيرا . لابد إذا من أن يتعاون الشعب والدولة على هذه الأشياء التى أشرنا إليها آنفًا . وهذا التعاون يستتبع بعض المسائل ويثير بعض المشكلات . فتعاون الشعب والدولة على تمكين المثقفين من الإنتاج كيف يكون وعلى أى نحو يكون . أما فى مصر فلابد من الاعتراف أن هذا التعاون أمنية قد تحقق يومًا ما ولكن تحققها الآن ليس يسيرًا . لأن الشعب لا يقدر شؤون الثقافة كما ينبغى ولأن الأغنياء لم يشعروا بعد بما يجب للوطن فى أموالهم كما ينبغى أيضًا . فسيظل العبء واقعًا على الدولة ولابد للدولة من أن تنهض به وإلا قصرت فى ذات الوطن وفى ذات الثقافة تقصيرًا شنيعًا .

وأيسر نظرة فيما تبذل الدولة الراقية من الجهد والمال لتشجيع المثقفين على الإنتاج فى العلم والفلسفة وفى الأدب والفن تكفى لاقناعنا بأن أمامنا طريقًا طويلة جدا لابد من أن نسلكها قبل أن نبلغ ما بلغته الأمم الراقية . وأقل ما يجب أن تنهض به الدولة فى

مصر لمعونة البحث العلمى وتمكين المثقفين من الإنتاج هو أن تنظم الهيئات العلمية والأدبية والفنية تنظيمًا حسنا وأن تمنحها معونة مالية صالحة ، وأن ترسم لها خطة العمل وأن تتحقق من حين إلى حين أنها ناهضة بما كلفت أداءه من الواجبات .

وفى مصر هيئات علمية مختلفة ولكنها مشتتة لا تستطيع التعاون وهى فى الوقت نفسه فقيرة لا تجد ما تنفقه . فقد أنشىء مجمع فؤاد الأول للغة العربية منذ أعوام . وأنشىء المجمع العلمى المصرى منذ قرن ونصف قرن . وأنشئت الجمعية الجغرافية فى القرن الماضى وأنشئت جمعية فؤاد الأول للتشريع والاقتصاد وجمعية فؤاد الأول للحشرات ومعهد فؤاد الأول للأحياء المائية وجمعية الأطباء وجمعية المهندسين والمجمع المصرى للثقافة العامة العلمية ، ولجنة التأليف والترجمة والنشر ، وجماعات أخرى لا تحضرنى الآن . والدولة تنفق على بعض هذه الهيئات ولكن فى غير نفع وتعين بعضها الآخر ولكن إعانة يسيرة لا تغنى شيئًا أو لا تكاد تغنى شيئًا . وأنا واثق بأن الدولة تستطيع أن تنظم هذه الهيئات تنظيما حسنا وتمنحها من المعونة ما يمكنها من الإنتاج الصحيح ، وبأنها إن فعلت فلن تمضى أعوام قليلة حتى تشعر مصر بأنها ليست أقل قدرة على الإنتاج العلمى والفنى من كثير من الأمم الحية الراقية . وأى شىء أيسر من أن تنشىء مصر مجمعها المصرى على نحو المجمع الفرنسى مثلا . على أن يتألف هذا المجمع من هيئات خاصة لكل طائفة من العلم أو الفن هيئتها المقصورة عليها . فهيئة للغة والأدب . وثانية للعلوم ، وثالثة للطب ، ورابعة للعلوم السياسية والفقهية والاقتصادية ، وخامسة للفنون الجميلة .

إذا أنشأت مصر هذا المجمع فلن تجد فى إنشائه مشقة لأن لكل هيئة من هيئاته نواة قائمة عاملة فى مصر . فلسنا نطلب إلا أن تنظم هذه الهيئات وأن تكون منها الهيئة الثقافية العليا لا أقول فى مصر وحدها بل فى الشرق العربى أيضًا .

هنالك تفرغ كل هيئة من هيئات هذا المجمع لعلومها وفنونها الخاصة باحثة مستقصية ومنتجة بعد البحث والاستقصاء ، ثم متصلة بأمثالها من الهيئات الأخرى فى أقطار الأرض ، فمحققه بهذا الاتصال ما ينبغى أن يكون بيننا وبين غيرنا من الأخذ والعطاء فى الإنتاج العقلى ومن تنمية الثروة الإنسانية من المعرفة والعلم . ولابد من أن تمنح الدولة والشعب هذا المجمع من المعونة المالية ما يمكنه من النهوض بهذه الأعباء ذات الخطر ، بحيث تجد كل هيئة ما تحتاج إليه إذا أرادت أن تبحث أو

تستقصى أو تنشر أو تذيع . وبحيث تجد كل هيئة ما تحتاج إليه لتشجيع الباحثين من غير أعضائها على البحث والإنتاج بالمكافآت والجوائز ، وبنشر ما يضعون من كتب ، وإذاعة ما يكتبون من فصول تستحق الإذاعة فيما يكون لها من المجلات . والخير أن تؤلف من هذه الهيئات كلها هيئة صغيرة تمثل فيها وزارة المعارف والجامعة ووزارة التجارة والصناعة ، وأهم الشركات التى تستغل المرافق العامة ، لتكون هذه الهيئة صلة بين البحث العلمى الخالص وبين الحياة العملية الخالصة ، ولتحقق ما لابد من تحقيقه من التعاون بين البحث العلمى والفن التطبيقى . ومن حق الدولة حينئذ أن تنتظر من الشركات وأصحاب الأعمال بل أن تكلفهم المشاركة فيما يحتاج إليه المجمع وهيئته هذه من الانفاق على البحث سواء كان علميًا أم فنيًا . ذلك بأن الدولة لن تستفيد وحدها من نتائج هذا البحث فى العلوم الخالصة والفنون التطبيقية ، وإنما تنتفع معها بل تنتفع أكثر منها هذه الشركات وما يشبهها من إدارات الأعمال الحرة . كما تنتفع الإنسانية كلها بما يكون من تقدم فى العلم النظرى أو الفن التطبيقى . ولابد من أن يستقر فى نفوسنا أن للعلم والفن والحضارة والإنسانية حقوقًا معلومة فى أموال الأغنياء ورجال الأعمال ، فإن أدوا هذه الحقوق من تلقاء أنفسهم فذاك وإلا أخذتهم الدولة بأدائها أخذا وحملتهم عليه حملا .

ولست أدرى أيقدر القارىء ما يكون لهذا النشاط من أثر فى الحياة العلمية والعملية والخلقية أيضا ، ولكنى مقتنع بأن هذا الأثر سيكون عظيما بعيدا جدا . سيكون مشبهًا لأمثاله من آثار النشاط العلمى والعملى فى البلاد الأوربية الراقية ، فإنى لا أبتكر هذا النحو من النظام الذى اقترحه ابتكارا ولا أخترعه من عند نفسى ، وإنما أنقله من الحياة الأوربية نقلا ، وأتوخى فيه ملاءمة البيئة المصرية الخاصة وما يمكن فيها وما لا يمكن . وما أدرى أى مشقة نجدها فى تحقيق هذا النظام ونحن ننفق أموالا مهما تكن قليلة فإن فيها شيئا من غناء ، ولكننا ننفقها متفرقة موزعة فيضيع كل جزء منها فى غير نفع . ولو قد أحصينا ما تبذله الدولة من الاعانة لهذه الهيئات وأشباهها لاجتمع لنا من هذا الاحصاء مقدار ضخم من المال . ولو قد بحثنا بعد ذلك عما ينتجه هذا المال من النفع لحياتنا العقلية أو العملية لما وجدنا شيئا .

كم أنفقت مصر على المجمع اللغوى منذ إنشائه ؟ وكم أنفقت مصر على هيئة كبار العلماء منذ إنشائها؟ وأى ثمرة علمية أوأدبية أودينية جنتها مصر من هاتين الهيئتين منذ

إنشائهما ؟ أما المال فكثير وأما النفع فلا أقول إنه قليل ولكنى أقول فى غير تردد : إنه غير موجود .

وأكبر الظن أننا سرنا فى إنشاء هذه الهيئات وتشجيع أمثالها سيرة الذين يكلفون بالمظاهر ويشغفون بالرياء ، ويريدون أن تكون لهم هيئات وجماعات كما أن لغيرهم هيئات وجماعات . وأظن أن قد آن الوقت لندع هذا الكلف بالمظاهر الكاذبة وننصرف عن هذا الشغف بالتقليد الذى لا يغنى ، ونأخذ أمورنا كلها بالجد فلا نقدم على شىء منها إلا ونحن نعرف ما نريد ولا نقدم على شىء منها إلا ونحن نريد تحقيق الغرض الذى من أجله يكون الاقدام .

الإنتاجُ العقْلى
٥٣

وفى حياتنا العقلية تقصير معيب يصيبنا منه كثير من الخزى كما يصيبنا كثير من الجهل وما يستتبعه الجهل من الشر . ولابد من إصلاحه إن كنا نريد أن ننصح لأنفسنا ونعيش عيشة الأمم الراقية ، وإن كنا نريد أن ننصح للعلم نفسه ونشارك فى ترقيته وتنميته ، وإن كنا نريد أن ننصح للشعب فنخرجه من الجهل إلى المعرفة ، ومن الخمود والجمود إلى النشاط والإنتاج ومظهر هذا التقصير المخزى إهمالنا الشنيع للترجمة والنقل عن اللغات الأوربية الحية . فما أكثر الآثار العلمية والفنية والأدبية التى تنعم بها الإنسانية الراقية ، وما أشد جهلنا لهذه الآثار وغفلتنا عنها ! وما أقل حظنا من الاستمتاع بلذاتها النقية الممتازة . وما أكثر حديثنا عن مجد العرب الأولين حين أقبلوا فى شره رائع على آثار الأمم المتحضرة فنقلوها إلى لغتهم ، ومزجوها بتراثهم ، وغذوا بها عقولهم وقلوبهم ، وكونوا منها حضارتهم .

نتحدث بهذا كله فنملأ به أفواهنا وننفخ له أوداجنا ونظل بعد ذلك خامدين جامدين لا نسير سيرتهم ولا نسلك طريقهم والآثار العلمية والفنية تزيد وتزيد ، والعقول الأوربية والقلوب الأوربية تستمتع بها وتستمتع ، والحضارة الأوربية ترقى وترقى ونحن مستمتعون بما نحن فيه من العجز والقصور : نعجب بقديمنا وإن لم نكن له أهلا ، ونرضى عن حديثنا وإن لم يكن خليقا بالرضى . وما أكثر ما نتحدث عن لغتنا العربية التى نحبها ونكبرها ونقدسها ونريد أن نجعلها لغة حية مرنة خصبة تسع كل ما فى الأرض من علم ومن فلسفة وأدب ، وتعبر عن كل ما يعرض من الخواطر والآراء وما ينشأ من الظواهر وما يستكشف فى العلم والعمل . نتحدث بذلك فى أنديتنا ومجالسنا ونذيعه فى صحفنا ومجلاتنا ، ولكننا لا نفعل شيئًا لنلائم بين سيرتنا وبين هذا الحديث . ونحن من غير شك أقل الأمم حظًا من الترجمة . وأقلها علمًا لا أقول بدقائق الحياة العقلية الأوربية بل أقول بأيسر مظاهرها . ومصدر ذلك أننا نجهل كثيرًا من اللغات الأوربية . وأن الذين يعرفون قليلا من هذه اللغات لا يكادون يعرفونها معرفة حسنة وأن الذين يحسنون هذه اللغات

لا يكادون يقرأون ما يذاع فيها من علم وأدب : إما لأنهم مصروفون إلى أعمالهم اليومية الشاقة ، وإما لأنهم لم يثقفوا الثقافة التى تحبب إليهم القراءة وتدفعهم إلى الاطلاع . وينشأ عن هذا أننا لا نترجم وكيف نترجم إذا كنا لا نقرأ ؟ وكيف نقرأ إذا كنا لم نثقف هذه الثقافة التى تجعل القراءة جزءا مقومًا لحياتنا اليومية ؟ وينشأ عن هذا كله خطر عظيم جدا وهو أن القارئين الكاتبين منا على قلتهم يجهلون الحضارة الحديثة جهلا تاما ، لأن كثرة هؤلاء القارئين الكاتبين تجهل اللغات الأجنبية جهلا تاما ولأننا لا نترجم لها إلى اللغة العربية ما لاتستطيع أن نقرأه فى اللغات الأجنبية .

ومن هنا كان المثقفون فى مصر فريقين : قلة ضئيلة تعرف بعض اللغات الأوربية ولا تقرأ فيها وهى مع ذلك تتمدح وتستطيل وترى نفسها ممتازة ، وكثرة تجهل اللغات الأوربية جهلا تاما ولا تجد من التراجم ما يضع عنها إصر هذا الجهل ، فتزدرى أوربا وتزدرى حضارتها وتزدرى من يعجبون بأوربا وحضارتها .

وقد قلت غير مرة فى غير هذا الحديث إن من غير المعقول أن تكلف كثرة القارئين الكاتبين فى أمة من الأمم إتقان اللغات الأجنبية . فلابد من أن تنقل لها خلاصة هذه اللغات إلى لغتها العربية . ذلك حق لها على الدولة وهو حق لها على المثقفين القادرين على الترجمة . وقد ذكرت فى هذا الحديث نفسه أن التلاميذ والطلاب عندنا لا يقرأون ، لأنهم لا يجدون ما يقرأ ، ولأننا لا نقدم إليهم ما يقرأ . ونحن لا نستطيع أن نقدم إليهم ما يقرأ إلا إذا ترجمنا وألفنا . ومن المحقق أننا لن نؤلف التأليف الذى يرضى حاجتنا إلى العلم والأدب إلا إذا ترجمنا وأكثرنا الترجمة . ذلك جرى أن يمنحنا ما نقرأ أولا وأن يدفع كثيرًا من الشباب إلى التقليد والمحاكاة . وقد فرغ الناس من إثبات أن التقليد عنصر من أرقى عناصر الحياة العقلية وأقواها . فلنترجم إذا ولنكثر من الترجمة ، ولنبذل فى ذلك أقصى ما نملك من الجهد وأكثر ما نستطيع من المال . وعلى الدولة المسكينة يقع هذا العبء كما يقع عليها كثير من الأعباء وقتًا طويلاً ، لأن ظروف الحياة المصرية تقتضى ذلك وتفرضه فرضًا . وإذا كانت وزارة المعارف تمنح الإعانات لكثير من الجماعات والهيئات التى يشك فى نفعها ، فلا أقل من أن تنشىء مكتبًا للترجمة على أن يكون عمله منوعًا بعض الشىء . فينهض بنقل الآثار الأدبية والعلمية والفلسفية الخالدة التى أصبحت تراثًا للإنسانية كلها والتى لا يجوز للغة حية أن تخلو منها . يترجم هذه الآثار لاغناء اللغة نفسها ومنحها ما تحتاج إليه من المرونة ، ولارضاء الكرامة القومية . ولا ينبغى أن

نشفق من قلة القارئين ، فإن القارئين سيكثرون وهم يكثرون من يوم إلى يوم . ثم يترجم هذا المكتب الآثار الثقافية الوسطى التى تتجه إلى عامة المثقفين على اختلافهم وتنوعهم وتباين حظوظهم من الثقافة . وواضح جدا أن هذا المكتب لن يستطيع وحده أن ينهض بهذه الأعباء الثقال . فلابد من تشجيع المترجمين وإغرائهم بالمال . ومهما تبذل وزارة المعارف فى ذلك فلن تندم عليه لأنه سيغنى اللغة ويحييها ، وسيغذى العقل المصرى وينميه ، وسينشر الثقافة ويذيعها ، وسيقرب بين الطبقات المختلفة فى الشعب ، وسيحقق الكرامة القومية التى تريد أن ترتفع عن الجهالة والغفلة ، وألا تكون صفوتنا دون غيرها من صفوة المثقفين فى الأمم الأخرى ، وألا تكون عامتنا دون غيرها من عامة الناس فى الأمم الأخرى أيضا .

قِلَّةُ إنْتاجِ المثقفين وأسْبَابُها

٥٤

وليس يكفى أن نشكو من أن الإنتاج العقلى فى مصر قليل ، قليل فى الكم ، وقليل فى الكيف أيضًا . فقد كان ينبغى لحياتنا العقلية الحديثة التى لم تنشأ اليوم ولا أمس ، أن تنتج أكثر جدًا مما أنتجت وأن ترفعنا إلى منزلة أرقى من المنزلة التى نحن فيها من الثقافة العالمية . وفى الأرض أمم اتصلت بالحياة الحديثة فى الوقت الذى اتصلنا بها فيه ، أو بعد هذا الوقت بزمن طويل أو قصير ، ولكنها كانت أسرع منا إلى الانتفاع بهذا الاتصال وأقدر منا على أن تفرض نفسها على الحياة الحديثة ، وتضطر الأمم الراقية إلى أن تجتهد فى معرفتها ، ثم إلى أن تجد فى هذه المعرفة متاعا ولذة ، ثم إلى أن تترجم عنها إلى لغاتها المختلفة . وما أظن أن هذه الأمم قد خلقت من جوهر أرقى من جوهرنا ، أو امتازت بملكات لم نظفر منها بنصيب ، وإنما أتيحت لها ظروف لم تتح لنا ، وبعض هذه الظروف خارجى لا نسأل عنه إلا بمقدار ، وبعضها داخلى نلام عليه أشد اللوم ، وليس هذا الكتاب إلا صورة لما نستحقه من اللوم ، على ما ورطنا فيه أنفسنا من تقصير .

وقد فهمت أنى أشير إلى بعض الأمم التى خضعت مثلنا لسلطان الترك ثم تخلصت من هذا السلطان شيئًا فشيئًا أثناء القرن الحاضر – كما تخلصنا نحن منه – حتى تم لها استقلالها السياسى الذى لم يكد يتم لنا إلى الآن . فهذه الأمم قد أسرعت إلى الحياة الأوربية الحديثة فاتصلت بها اتصالا لا تردد فيه ، وما أسرع ما انتفعت بهذا الاتصال وانتهت إلى غايته ، فأصبحت مشاركة بالفعل فى الحياة العقلية الأوربية ، تختلف حظوظها من هذه المشاركة ولكنها أرقى منا على كل حال . وأنا أعلم أن هذه الأمم لم تخلص من الترك لتقع فى يد الإنجليز وأن استمتاعها بالاستقلال السياسى قد أتاح لها من الحرية فى تنظيم أمورها ما لم يتح لنا إلا منذ وقت قصير جدًا . بل أنا أعلم أنها قد وجدت من أوربا حبا لها ، وعطفًا عليها ، ومعونة متنوعة على تحقيق أغراضها . وكان مصدر هذا كله السياسة أحيانا والدين أحيانا أخرى . وأننا نحن لم نظفر من أوربا بشىء مثل هذا ، ولعلنا ظفرنا بما يناقض هذا كل المناقضة فكنا موضوع الطمع الأوربى والمنافسة الأوربية ،

والظلم الأوربى . وأخرنا هذا كله عما كان ينبغى أن نبلغ من الرقى منذ اتصلنا بالحياة الحديثة ولكن هذا كله لا يعفينا من اللوم ، لأننا لم نحسن مقاومة أوربا ، ولم نحسن انتهاز الفرص التى سنحت لنا ، ولم نأخذ أمورنا بالجد والحزم . وإنما تواكلنا وتلكأنا واكتفينا بالظواهر ، وأرجأنا العمل من يوم إلى يوم . وها نحن أولاء قد ظفرنا بحريتنا ، وكان الحق علينا أن يدفعنا هذا الظفر دفعة قوية إلى أمام . ولكنا ما نزال بعد الاستقلال كما كنا قبل الاستقلال نسمع العالم جعجعة ولا نريه طحنا .

فليس يكفى أن نشكو من هذا وإنما يجب أن نطب له . وليس يكفى أن نعيب المثقفين المصريين والأدباء بقلة الإنتاج وإنما يجب أن نلتمس الأسباب التى اضطرتهم إلى قلة الإنتاج وأن نطب لهذه الأسباب إن كان إلى الطب لها سبيل .

والواقع أنى معجب بهؤلاء المثقفين من المصريين ، فهم قد بذلوا من الجهد ، واحتملوا من العناء ، ما لا يشعر به المعاصرون لهم وما سيقدره لهم التاريخ حق قدره . نشأوا فى بيئة معادية للثقافة أشد العداء ، ممانعة لها أشنع الممانعة ، وقد بدأوا بأنفسهم فحرروها من كثير من التقاليد الثقيلة الفادحة حتى عدتهم بيئتهم شذاذًا ، وقاومتهم ألوان من المقاومة فلم يهنوا ولم يضعفوا وإنما مضوا أمامهم لا يلوون على شىء حتى كتب لهم النصر .

قاومهم الشعب لأنه لم يفهم عنهم ، وقاومهم السلطان الظاهر لأنه أشفق منهم ، وقاومهم السلطان الخفى لأنه رأى فيهم قادة الحرية والهداة إلى الاستقلال . فثبتوا لهذا كله ، وانتصروا على هذا كله ، وخرجوا من المعركة ظافرين . وقد أدركنا هذا العهد الذى لم يكد ينتهى بعد ، والذى ما نزال فى أعقابه وما نزال نشهد بعض آثاره ، والذى التقى فيه جيلان من المثقفين . أحدهما الجيل القديم الذى كان يتخذ الأدب وسيلة إلى العيش وكسب القوت ، ثم إلى كسب الثروة والحظوة عند الكبراء وأصحاب السلطان وعند الأغنياء والموسرين ، مهدرًا فى سبيل هذا كله بل فى سبيل ما هو أيسر من هذا كله كرامته وحريته ورأيه وشعوره أيضا ، والجيل الحديث الذى آثر الحرية والكرامة على كل شىء ، فلم يتخذ الأدب إلا سبيلا إلى لذته العقلية ، ومتعته الفنية ، وإلى إيقاظ الشعور ، وتنبيه الشعب إلى حقه وواجبه ، وترقية الذوق ، وإذاعة هذه الحياة العقلية الجديدة فى مصر بوجه عام . أدركنا هذا العهد الذى التقى فيه جيلان من المثقفين الأدباء ، نزل أحدهما حتى عن رجولته ، فأصبح ظلا للمنعم عليه بالقليل أو الكثير . ونزل أحدهما الآخر عن كل شىء فى سبيل هذه الرجولة ، فاضطر السادة والقادة والأغنياء

والمترفين لا إلى أن يكبروه ويقدروه ، بل إلى أن يتملقوه ويترضوه ، ويصبحوا له ظلالاً في بعض الأحيان . وكان سبيل الجيل الحديث إلى ذلك أنه لم ير الأدب عرضا من الأعراض أو سلعة من السلع يمكن أن تعرض للبيع ، وأن يظفر بها أكثر الناس بذلا وأعظمهم سخاء . وإنما رأى الأدب صورة النفس وفيض العقل وخلاصة القلب ، فآثره كما يؤثر نفسه وعقله وقلبه ، والتمس الحياة المادية بوسائلها ، وسلك إليها طرقها المألوفة : فمن هؤلاء المثقفين من التمس الحياة من العمل فى الدواوين ، ومنهم من التمسها من العمل فى الصحافة ، ومنهم من التمسها فيما شاء الله من الصناعات الحرة والأعمال الكريمة ، التى لا تغض من صاحبها ولا تعرضه للهوان ، فهذا هو الفتح الأول الذى ظفر به الجيل الحديث من المثقفين . وهناك فتح آخر ليس أقل منه خطرًا ، ولا أهون منه شأنا ، وهو الذى انتهى إليه أدباؤنا المحدثون حين ثبتوا لمقاومة الشعب وتنكر السلطان ، وكيد السياسة ، حتى كتب لهم النصر على هذا كله وانتصرت أراؤهم ومقالاتهم على رغم ما احتملوا من العنف وما اضطروا إليه من الضيق ، وما خضعوا له من الفتنة فى أنفسهم وفى أخلاقهم وفى حريتهم وفى صحفهم : فمنهم من اضطر إلى الجوع ومنهم من عرف الفاقة ، ومنهم من ذاق حياة السجن ، ومنهم من تعرض لألوان من الخطر قد تكون أشد من هذا كله وأسوأ عقبى .

كل هذا قد احتمله الجيل الحديث من الأدباء والمثقفين فثبتوا له وظهروا عليه . فإذا سألت بعد ذلك عما لقى هؤلاء الأدباء المحدثون من معونة الدولة وتأييد الشعب ، لم تجد شيئا . ولم تكد تجد شيئًا ومع ذلك فقد آن للدولة والشعب أن يعرفا للأدباء المحدثين حقهم عليهما ، لا إيثارا لهم بالخير ، ولا ضنا بهم على المكروه ، ولكن تمكينا لهم من الفراغ للإنتاج الأدبى والفنى الذى ذاق الشعب لذته وأصبح لا يطيق استغناء عنه . فإن هؤلاء الأدباء مهما يبذلوا من جهد ، ومهما يكلفوا أنفسهم من عناء ، فلن يستطيعوا أن يفرغوا للإنتاج القيم الذى يذكى الثقافة ويرقيها ويهذب الأذواق ويصفيها ، وأن يعملوا مع ذلك وأن يجاهدوا لكسب حياتهم اليومية فإن الله لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه ، وما ينبغى أن يتكلف الأدباء فى مصر ما يتكلفه أمثالهم فى البلاد الراقية الحية ، لأن ظروف الحياة هنا مخالفة لظروف الحياة هناك .

ويجب أن نقدر أن عدد القارئين الكاتبين فى مصر لم يكد يتجاوز العشرة فى المائة من السكان ، وأن كثرة هؤلاء القارئين الكاتبين مصروفة عن القراءة إلى الكسل ، لأن

التعليم لم يزين فى قلبها حب القراءة ، أو إلى العمل لكسب القوت ، فإذا قرأت فهى إنما تقرأ الصحف وهذه المجلات الهينة اليسيرة ، وهى تجد فى هذه المجلات وتلك الصحف غذاء هينًا يسيرًا ، يلائم ثقافتها وحاجتها إلى السرعة ، وعجزها عن التأمل والتفكير ، وتعمق الخواطر والآراء . فالأدباء إذا ألفوا أو ترجموا فإنما يبلغون عددا قليلا جدا من القراء ، ومن القراء الذين يمنون عليهم بقراءة آثارهم ، وأكثرهم لا يشترى هذه الآثار وإنما يستعيرها من هذا وذاك ، ويتلقطها من هنا أو هناك .

ومن المحقق أن الإنتاج الأدبى صناعة لا تقوت صاحبها ، ولا تقيم أوده فى مصر كما يقول الفرنسيون ، فإذا طلبت إلى الأدباء أن يفرغوا لهذا الإنتاج فقد طلبت إليهم أن يفرغوا للبؤس والجوع .

وإذا فنحن بين اثنتين : فأما أن نريد تشجيع الإنتاج الأدبى وتمكين الأدباء من الفراغ له وإذا فلابد من أن نهيء لهم الظروف التى تيسر ذلك وترغبهم فيه . وإما أن نريد ترك أمورنا تجرى على ما تجرى عليه الآن ، وإذا فلنحل بين الأدباء وبين حياتهم يحيونها كما يستطيعون ، ينتجون حين يجدون من الفراغ والقوة وحسن الاستعداد ما يمكنهم من الإنتاج . فلن يكون الإنتاج الأدبى فى هذه الحال إلا نافلة وشيئًا إضافيًا قد يجيء وقد لا يجيء .

وفى القراء مكر خطر ، وفيهم دهاء شنيع وفيهم استغلال أقل ما يوصف به أنه شديد القسوة ، فهم يعلمون أن الأديب الذى يستحق هذا الوصف لا يستطيع أن يعيش إلا إذا أنتج ، لأنه لا يستطيع أن يتلقى الحياة وأحداثها حتى يسيغها ويتمثلها ثم يخرجها بعد ذلك أدبا فى كتاب يقرأ . وهم من أجل ذلك يقسون على الأديب ولايحفلون بآلامه لأنهم واثقون بأنه سيقدم إليهم غذاءهم الروحى سواء أسعد أم شقى ، وسواء أشبع أم جاع . ولكن ليأخذ القراء حذرهم من شيء لعلهم لم يفطنوا إليه ، لأنهم مشغولون بأنفسهم ، مصروفون إلى لذاتهم ومتاعهم ، وهو أن الحياة الحديثة لا تسمح باستغلال الأديب كما يستغل الحيوان ، وكما تستغل الأدوات . ذلك أن للأديب الحق فى أن يعيش كما يعيش معاصروه ، ولعل له الحق فى أن يعيش خيرًا مما يعيش معاصروه .

وما دام يستطيع أن يحتمل الألم ، ويذوق ألوان العذاب ليغذو عقول معاصريه وقلوبهم ، فلا أقل من أن يضمن له هؤلاء المعاصرون حياة لا أقول راضية ناعمة وإنما أقول هادئة تمكنه من الفراغ لإعداد هذه المائدة التى يستمتع المعاصرون بما عليها من ألوان ، فإن

لم يفعلوا فلا على الأديب من أن يسير سيرة غيره من الناس ، ومن أن يعيش كما يعيشون ، ويضطرب فى طلب الرزق كما يضطربون . وإنى أؤكد لهؤلاء القراء وللدولة معهم ، أن فى مصر أدباء قد يكونوا قليلين ولكنهم موجودون نعرفهم جميعًا ، ولو قد مكنوا من الفراغ لصناعتهم ، وأتيحت لهم الراحة من هذا الجهد السخيف الذى يبذلونه فى كل يوم ليعيشوا لكان شأن الأدب العربى الحديث فى مصر الآن أرقى وأعظم خطرًا وأبعد أثرًا مما نرى .

ولقد شهدت فى العام الماضى مؤتمرًا يعقده الأدباء العالميون بين حين وحين ، وكان موضوع بحث المؤتمر فى هذه المرة مستقبل الأدب . فرأيت كثرة المؤتمرين والفرنسيين منهم خاصة يشكون أشد الشكوى وأمرها مما يتعرض له الأدباء من البؤس ، ويلحون على الدولة فى أن تشرع من القوانين ، وتتخذ من الإجراء ، ما يحميهم من هذا البؤس . ولا أستطيع أن أصور ما كان يملأ نفسى من العزة والفخر بأدباءنا المحدثين ، حين تحدثت إلى هؤلاء المؤتمرين بالفرق الهائل بين قرائنا وقرائهم فى العدد أولا وفى الإقبال على القراءة والنشاط لها ثانيا . ثم بهذه الأنفة الكريمة التى صرفت أدباءنا المعاصرين إلى الآن عن أن يطالبوا الدولة أو الشعب بالتأييد والتشجيع ، أو أن ينتظروا من الدولة والشعب شيئًا . ومع ذلك فقد كان أدباؤنا إلى وقت قريب جدا يسيرون سيرة أسلافهم ولا يعيشون إلا فى ظل الأغنياء والموسرين . نعم ولا أستطيع أن أصور ما كان يملأ نفسى من العزة والفخر بأدبائنا المعاصرين حين قصصت على هؤلاء المؤتمرين ما كان من إقدام صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا على تشجيع الإنتاج الأدبى حين كان رئيسًا للوزارة ، ومن عرضه ألفين من الجنيهات على أن تكون جوائز للذين يفوزون فى مسابقات أدبية أعلنت موضوعاتها ، ومن إعراض أدبائنا كلهم أو أكثرهم عن هذه المسابقات وتركها للطلاب والشباب الناشئين .

نعم كنت عزيزًا فخورًا حين كنت أتحدث بهذا للمؤتمرين ولكنى الآن وأنا أتحدث إلى المواطنين أشعر بشىء آخر هو الألم والخوف . الألم لهذه الجهود الضائعة والخوف على مستقبل حياتنا الأدبية من هذا الاهمال . وما أظن أن أحدًا من أدباءنا المعاصرين يخالفنى إذا زعمت أن كل أديب فى مصر إذا خلا إلى نفسه ، واستقصى أمره ، ووازن بين حياته وحياة أترابه من الموظفين وأشباه الموظفين، ومن المترفين وأشباه المترفين ، تمثل — وكان صادقًا — قول العرجى:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فلتشعر الدولة بواجبها ولتنظم للأدباء من الجوائز وألوان التشجيع ما هم فى حاجة إليه . ويكفى أن تلاحظ الدولة وأن يلاحظ الشعب معها أن أخمل الأدباء فى بلد كفرنسا أو إنجلترا واثق إذا قبل الناشرون كتابه أنه سيجد قراء يحصون بالألوف الكثيرة ، وأن أنبه الأدباء فى مصر واثق بأنه حين ينشر كتابا فلن يظفر إلا بألوف لا تبلغ أصابع اليد الواحدة ، وهذه الألوف لن تقرأ كتابه فى الأشهر ولا فى العام ولكن فى العامين أو فى الأعوام المتصلة . وما أكثر الكتب القيمة التى لا تطبع عندنا إلا مرة واحدة .

وليس هذا كل ما ينبغى أن يظفر به الأدب والأدباء من تشجيع الدولة والشعب بل هناك شىء آخر لعله أعظم خطرًا من المال وهو الحرية . فالأدباء عندنا ليسوا أحرارًا لا بالقياس إلى الدولة ولا بالقياس إلى القراء . وما أكبر النبوغ الذى يضيع ويذهب هدرًا ، لأنه يكظم نفسه ، ويكرهها على الاعراض عن الإنتاج خوفًا من الدولة ، أو خوفًا من القراء ، فليس كل موضوع يعرض للإديب عندنا تسيغه القوانين ويحتمله النظام ويرضى عنه ذوق الجمهور .

ولعل ما يباح للأدباء أن يتعرضوا له وينتجوا فيه أن يكون أقل جدا مما يحظر عليهم أن يتناولوه ويخوضوا فيه . ما أكثر الذين يعيبون أدباءنا بأنهم لا يتصلون بالشعب ولا يصورون حياته كما هى ، ويتهمونه ظلما ، لأنهم يتكلفون الارستقراطية ، ويتصنعون الامتياز . ولكن دع أدباءنا يتصلوا بطبقات الشعب فيصوروا آلامها وحياتها البشعة ، ثم انتظر بعد ذلك ما سيصب عليهم من اللوم وما سيهيأ لهم من الكيد ، وما سيوجه إليهم من التهم وما سينالهم من المكروه .

ما أكثر ما يعاب أدباؤنا بأنهم لايعنون إلابظواهر النفوس، ولايصورون دخائلها، ولايتعمقون ضمائرها، ولايرسمون شيئًا من ذلك فيما ينتجون، ولكن دعهم يفعلوا مايلامون على إهماله، ودعهم يظهروا النفس الإنسانية عارية كما يفعل زملاؤهم الأوربيون، وثق بأنهم قادرون على ذلك خليقون أن يبرعوا فيه ويبهروا به إن حاولوه. دعهم يفعلوا ذلك ثم انتظر ما يصب عليهم الجمهور ورجال الدين وإدارة الأمن العام والنيابة من المكروه . يجب أن يحرر الأدب والأدباء وأن يتاح لهم القول فى كل ما يشعرون به ويجدون الحاجة إلى القول فيه ، ويجب أن تكون قوانيننا سمحة وأن يكون تطبيقها سمحا ، وأن يكون ذوق الجمهور عندنا سمحا كذلك .

ولنثق بأن الإنتاج القيم وحده هو الذى سيبقى وسينفع ، وبأن الإنتاج السخيف أو المرذول لن يقاوم عوادى الدهر ولن يقوى على البقاء .

ولحرية الرأى شرها أحيانًا ولكن لها خيرها دائمًا ، ونفع الحرية أكثر من ضرها على كل حال . وما أشك فى أن كثيرًا من الآثام الفردية والاجتماعية سيزول أو تخف أضراره إذا أتيح للأدباء أن يتناولوه بالنقد والتحليل وبالعرض والتصوير . وما أشك فى أن قوانيننا حين تتشدد فى مصادرة ما تصادر من حرية الأدب لا تحمى الفضيلة وإنما تحمى الرذيلة وتخلى بينها وبين النفوس .

الصحافة والسينما والراديو

٥٥

وسيدهش القارىء حين يرانى أطالب بشىء من تقييد الحرية بعد أن طالبت الآن باطلاقها ، وذلك حين أتحدث عن هذه الأدوات الحديثة التى استكشفها العلم وابتكرتها الحضارة واتخذتها وسيلة إلى الإذاعة والتغلغل فى طبقات الناس إلى أبعد حد ممكن . وأنا إنما أريد الحديث عن الصحافة والسينما والراديو .

ومن السخف أن يظن بى أحد أنى أغض من قدر هذه الأدوات الثلاث أو أريد بها شرا . فأنا من المكبرين لها المؤمنين بنفعها الذين ينتظرون منها الخير كل الخير ، لأنى لا أنظر إليها على أنها أدوات للإذاعة وإنما أنظر إليها على أنها أدوات لتثقيف الشعب وتهذيبه وتصفية ذوقه وتنقية طبعه وتحقيق الصلة بينه وبين غيره من الشعوب . ولست أنظر إليها على أنها مكملة للتعليم الشعبى وإنما أنظر إليها على أنها قد تكون أشمل نفعًا وأبعد أثرا من هذا التعليم ، ولكن بشرط أن تحقق هذه الأغراض وألا تصرف عنها إلى أغراض أخرى ليست من الخير فى شىء . وأنا أعلم أن الأدباء والفلاسفة الأوربيين يشفقون من هذه الأدوات الثلاث على العقل والثقافة أشد الإشفاق .

قد ألفوا فى ذلك الكتب وكتبوا فى ذلك المقالات وسيؤلفون الكتب ويكتبون المقالات . ولكنى أعلم أن ظروف الحياة فى مصر مخالفة لظروف الحياة فى أوربا ، فالشعوب الأوربية قادرة على القراءة لأنها أخذت بالتعليم منذ عهد بعيد . ومن المحقق أن الصحافة والسينما والراديو خليقة أن تصرف الناس عن القراءة الهادئة المطمئنة ، وأن تنافس الكتاب منافسة خطرة على العقل والثقافة . ولكن كثرة المصريين لا تقرأ فلا أقل من أن تتلى عليها الصحف التى تعلمها وتهذبها بلغتها السهلة وعباراتها العربية وأساليبها اليسيرة ، ولا أقل من أن يبلغ السينما والراديو عقولها وقلوبها وأذواقها بما يعرضان عليها ويحملان إليها من المشاهد والأخبار ، ومن ألوان العلم والأدب والفن الميسرة المقربة إلى طاقتهم . وإلى أن تتعلم هذه الكثرة المصرية وتصبح هذه الأدوات خطرا على القراءة الهادئة المطمئنة ، نستطيع أن نعتمد على هذه الأدوات نفسها على أنها وسائل أساسية إلى تثقيف الشعب وتهذيبه وإرشاده إلى الخير فى سيرته وإلى الصواب فى رأيه .

وإذا طالبت بأن تحد حرية هذه الأدوات بعض الشيء فإنى لا أريد أن تكون إدارة الأمن العام أو إدارة المطبوعات هى التى تقيد هذه الحرية ، وإنما أريد أن تنظم هيئات من المثقفين تشرف من بعيد على حياة هذه الأدوات الثلاث ، وواضح أن هذه الهيئات لن تكون غريبة عن هذه الأدوات .

فنقابة الصحافة هى التى ستشرف على حياة الصحافة وهى التى ستوجهها وهى التى ستردها إلى القصد إن جارت عنه وإلى الخير إن تنكبت طريقه . وقل مثل ذلك فى لجنة الراديو . أما السينما فله قصة أخرى لأنه يأتينا من الخارج ، والطارىء علينا منه أكثر جدا من الذى نستحدثه فى بلادنا ، وإذا كانت أوربا نفسها على حريتها تشكو من خطره على الذوق والخلق ، فأحرى بنا أن نحتاط منه للذوق والخلق ، وأن نراقبه مراقبة دقيقة وألا نبيح عرضه إلا إذا وجدنا منه الخير وأمنا من شره على أقل تقدير . والمهم أن يكون أمر ذلك إلى هيئة مثقفة ترتفع عن التحكم والجور وتتنزه عن الرجعية والجمود .

خَطَرُ السينما عَلَى التمثِيل

٥٦

والتشديد على السينما فى مصر واجب بنوع خاص لسبب قد يظهر غريبًا بعض الشيء ولكنه واضح إذا فكرت فيه تفكيرًا يسيرًا ، فليس السينما خطرًا على الذوق والخلق والكتاب فحسب ، ولكنه خطر على فن ناشيء فى مصر ونحن حراص على أن نقويه وننميه ، لأن تقويته وتنميته إحياء للأدب من ناحية وترقية صحيحة للذوق من ناحية أخرى ، وهو فن التمثيل .

فهذا الفن الطارىء على لغتنا العربية من أقوم الفنون الأدبية وأرقاها وأبلغها أثرا فى إمتاع النفوس وتصفية الأذواق . وهو لا يتجه إلى النظارة وحدهم وإنما يتجه إليهم وإلى القراء أيضا وهو لا يكتفى بجمال المنظر وسحره وإنما يضيف إليه الجمال الأدبى فى اللفظ والأسلوب والحوار . فله على السينما فضل الفن الرفيع وله على السينما فضل البقاء والصلاح ، لأنه يراجع ويراجع فى أناة ومهمل وعلى انفراد . وكل هذا خليق أن يدفعنا إلى إيثاره على السينما ، لأنه عنصر من عناصر التربية الأدبية والفنية معا . وقد بذلنا فى العناية به جهودًا موفقة ، ولم تبخل عليه الدولة بالمال ، بل هى تشجعه أكثر جدا مما تشجع غيره من فنون الأدب . فلا أقل من أن تحميه بعض الحماية لا أقول بمحاربة السينما ، فلا سبيل إلى ذلك ولا خير فيه ، ولكن أقول بمراقبته والتحرج فى هذه المراقبة .

فأما العناية بالتمثيل نفسه فلست أقول شيئًا لأن لها لجنة تنهض بها على وجه لا بأس به .

وَاجبُ مِصْرَ نَحْوَ الأقْطارِ العَربيـة
٥٧

قد أشرت منذ حين إلى أن من الحق على الدولة المصرية للثقافة أن تذيعها فى طبقات الشعب المصرى من جهة ، وأن تتجاوز بها الحدود المصرية إلى الأقطار التى تستطيع أن تسيغها وأن تنتفع بها من جهة أخرى .

ولأمر ما قالت بعض الأقطار الشرقية لمصر إنها زعيمة الشرق العربى ، ولأمر ما صدقت مصر ما قيل لها . فإن كان هذا حقًا فإن له نتائج يجب أن تنشأ عنه وتبعات يجب أن تترتب عليه . وإن لم يكن هذا حقًا فإن من الواجب علينا أن نحققه لأن فيه تحقيقًا لكرامتنا من ناحية ، ولأن فيه ارتفاعًا عن الأثرة التى لا تليق بشعب كريم . والشىء الذى لا شك فيه هو أن الله قد هيأ لمصر من أسباب القدرة على إحياء الثقافة ونشرها ما لم يهىء لغيرها بعد من الأمم العربية . فمما لا يليق بالمصريين وقد تسامع الناس بأنهم كرام ، وزعموا هم لأنفسهم أنهم كرام أيضا ، مما لا يليق بهم أن يؤثروا أنفسهم بما أتيح لهم من الخير ويختصوها بما أتيح لها من النعمة ، وإنما الذى يلائم كرمها وكرامتها وما تطمح إليه من المثل الأعلى أن يكون حديثها ملائما لقديمها وأن تكون مشرق النور لما حولها من الأقطار وأن تكون البلد الذى تهوى إليه أفئدة الطالبين للعلم والراغبين فيه .

وقد يظن المصريون أنهم يبلون فى سبيل ذلك بلاء حسنا . فأحب أن أصارحهم بأنهم لم يفعلوا فى سبيل ذلك شيئا .

إن الأقطار العربية تقرأ ما ينشر فى مصر من الصحف والكتب والمجلات ، ولكن مصر لم تصنع إلى الآن شيئًا لتيسر لهذه الأقطار قراءة كتبها وصحفها ومجلاتها . ولعل من هذه الأقطار ما يلقى كثيرًا من الجهد فى الظفر بحاجته من هذه الكتب والصحف والمجلات . ولو قد يسرت مصر للأقطار العربية قراءة آثارها المطبوعة لما بلغت من خدمة الثقافة إلا أيسرها وأهونها ، على أن ذلك يعود عليها بالمنفعة المادية والمعنوية جميعا .

نعم إن مصر تيسر لبعض البلاد العربية استدعاء بعض المعلمين ، ولعلها تجد فى ذلك شيئا من الجهد ، ولكن هذا من أيسر الأمر أيضا . وتبعات المركز الممتاز الذى أتيح لها بين الأقطار العربية تفرض عليها أكثر من ذلك . ولست أذكر إلا أمرين اثنين : أحدهما قد أخذت مصر بأسبابه ولكن فى بطء وتردد ، وهو فتح أبواب مدارسنا ومعاهدنا للطلاب الشرقيين والعناية بهم إذا وفدوا على بلادنا ، لا بأن نيسر لهم طلب العلم فحسب ، بل بأن نيسر لهم حياتهم فى مصر أيضا وإنى لأوازن بين ما تصنعه البلاد الأوربية لتحقيق العناية بالطلاب الأجانب وما نصنعه نحن فأوازن بين الوجود والعدم . ومع ذلك فأوربا حين تعنى بالطلاب الأجانب إنما تنشر الدعوة لنفسها وتستقدم الأجانب لينفقوا فيها أموالهم وليعودوا منها وقد تأثروا بها وأصبحوا لها رسلا فى بلادهم . فأما نحن فلسنا فى حاجة إلى نشر الدعوة لأننا لا نطمع فى شىء ، ولأن الدعوة المصرية تنشر نفسها فى الأقطار العربية لما تقوم عليه من الحب والمودة والاخاء . وإنما يجب علينا أن نيسر لطلاب الأقطار العربية الدرس والاقامة فى مصر أداء للحق ونهوضا بالواجب ووفاء للأصدقاء وصرفا لهؤلاء الأصدقاء عن الرحلة إلى أقطار الغرب إن وجدوا فى هذه الرحلة مشقة أو عناء .

والأمر الثانى دعوت إليه سرا منذ أكثر من عشرة أعوام حين تولى حضرة صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا وزارة المعارف للمرة الأولى . فقد شهدت مؤتمرا للآثار عقد فى سوريا ولبنان وفلسطين . فلما عدت رفعت إلى الوزير تقريرًا خاصًا طلبت فيه أن تنشىء مصر مدارس مصرية للتعليم الابتدائى والثانوى فى هذه الأقطار . وكان الذى أثار فى نفسى هذا الاقتراح ما رأيته من السلطان العقلى للمدارس الأجنبية على هذه الأقطار . وكنت أرى أن العقل المصرى أقرب إلى العقل السورى والفلسطينى وأحرى أن يتصل به ويؤثر فيه تأثيرا حسنا من العقل الأمريكى أو الفرنسى . ولكن وزير المعارف حينئذ نبهنى باسما إلى أن ذلك ليس ميسورًا ، فقد تريد مصر ولكن السياسة الأجنبية ستأباه من غير شك . وكان هذا حقا حينئذ ، فأما الآن وقد عقد بيننا وبين أوربا اتفاق مونترو ، وقد ظفرت سوريا ولبنان ببعض الحرية واستقلت العراق ، فما أرى أن مصاعب سياسية تقوم دون هذا النوع من التعاون الثقافى بين الأقطار العربية التى تجمعها وحدة اللغة والدين والمثل الأعلى ، والتى تشترك فى منافع اقتصادية عظيمة الخطر .

ما أظن أن السياسة الوطنية لهذه الأقطار تكره أن تنشأ فيها مدارس مصرية تحمل إلى أبنائها ثقافة عربية شرقية ، ويحملها إليهم معلمون شرقيون مثلهم يتحدثون إليهم بلغتهم ويشاركونهم فى الذوق والميل والشعور . وما أظن أن السياسة الأوربية تمانع فى ذلك وقد تم الاتفاق بيننا وبين أوربا على أن تستقر فى بلادنا مدارس أوربية وتستمتع بكل ما يمكنها من النهوض بمهمتها فى حدود القوانين المصرية وعلى أن يكون التبادل أساسًا لهذا الاتفاق .

وواضح أننا لا نريد أن ننشىء مدارسنا المصرية فى فرنسا أو انجلترا أو إيطاليا ، ولكن من حقنا أن ننشىء المدارس المصرية فى البلاد العربية التى تتأثر بسلطان هذه البلاد ونفوذها تأثرا قليلا أو كثيرا .

ومن المحقق أننا إذا أنشأنا المدارس المصرية فى الأقطار العربية فسننشئها وسنسيرها على النحو الذى نحب أن تنشأ عليه المدارس الأجنبية فى بلادنا وأن تسير عليه أيضًا . سننشئها على أنها معاهد للتعاون الثقافى بيننا وبين أهل هذه البلاد ، لا يستأثر المصريون وحدهم بالعمل فيها ، بل يستعينون بمن يقدرون على معونتهم من الوطنيين . ولا تفرض فيها الجغرافيا المصرية والتاريخ المصرى دون الجغرافيا الوطنية والتاريخ الوطنى ، وإنما تكون معاهد ينشأ فيها الوطنيون لأوطانهم لا لمصر ، وحسب مصر أنها تعين على ذلك وتشارك فيه وتؤدى ما عليها من الحق لجيرانها وشركائها فى اللغة والدين والاقتصاد ، وحسبها أن تظفر منهم بالحب والمودة والاخاء .

وقد يقال إن أعباء الدولة المصرية أثقل من أن تسمح لها بمثل هذا التوسع فى إذاعة الثقافة خارج حدودها على حين أنها فى أشد الحاجة إلى إذاعة الثقافة داخل هذه الحدود . وقد يكون هذا حقا من بعض الوجوه . ولكن من الحق أيضًا أن لحياتنا المستقلة تبعاتها ، وأن التقتير فى النهوض بهذه التبعات لا يلائم ما نزعمه لأنفسنا من الكرامة والزعامة .

ومما لا شك فيه أن هذه المدارس إن أنشأناها ستكون أنفع لمصر وللبلاد التى تنشأ فيها من كثير من القنصليات والمفوضيات التى نبثها فيها ولا نجنى منها نفعا .

ومما لا شك فيه أيضا أن العبء المالى الذى يتبعه إنشاء هذه المدارس لا ينبغى أن يقع كله على الدولة ، وإنما ينبغى أن يشارك فيه القادرون على هذه المشاركة من المصريين أولا ومن الوطنيين ثانيًا. وحسب الدولة أن تعينها معونة قيمة بالمال والرجال .

على هذا النحو تحمل مصر تبعاتها وتنهض بواجباتها الثقافية وتلائم بين حديثها وقديمها ، فقد كانت مصر فيما مضى من العهود الإسلامية مصدر الثقافة والعلم للأقطار العربية فى الشرق القريب . لم تقصر فى ذلك إلا حين اضطرها السلطان العثمانى إلى التقصير فيه . فأما الآن وقد استردت استقلالها فيجب أن تسترد مكانتها الثقافية فى الشرق القريب . وهناك بلاد عربية لم ينشىء فيها الأجانب ولا يستطيعون أن ينشئوا فيها المدارس والمعاهد ، ولا يجد أهلها فضلا من المال ينفقونه فى تنمية الثقافة كما ينبغى . فالحق على مصر أن تسرع إلى معونة هذه البلاد وألا تدخر جهدًا إلا بذلته فى هذه السبيل . وهذه البلاد هى الحجاز وبلاد الدولة العربية السعودية بوجه عام .

وما أشك فى أن المصريين يرضون كل الرضى عن إنشاء مدرستين على أقل تقدير ، إحداهما فى مكة والأخرى فى المدينة ، ما أشك فى أنهم يتجاوزون الرضى إلى البذل والانفاق . وقد علمت أن أهل الحجاز أنفسهم يتمنون ذلك ويلحون فيه .

التعاوُن على تنظيمِ الثقَافةِ وَتَوْحيدِ بَرَامِجهَا

٥٨

وليس هذا كل ما ينبغى أن تنهض به مصر لنشر الثقافة فى الأقطار العربية . بل هناك شىء آخر قد عم الشعور به واشتدت الحاجة إليه حتى أخذت وزارة المعارف تفكر فيه وتستعد له وهو : التعاون على تنظيم الثقافة وتوحيد برامجها بالقياس إلى الأقطار العربية كافة . يدعو إلى ذلك حاجة هذه البلاد إلى توحيد الجهود ما دام مثلها الثقافى الأعلى واحدا ، ويدعو إلى ذلك أن التعليم العالى فى مصر قد بلغ من الرقى درجة تدعو إليه طلاب العلم فى الأقطار العربية . وللتعليم العالى فى مصر نظم دقيقة شاقة قد تحول بين هؤلاء الطلاب وبين الانتفاع به والظفر باجازاته ودرجاته ، فلابد من أن يهيأ هؤلاء الطلاب لهذا التعليم تهيئة حسنة تلائم تهيئة المصريين له . وقد اجتمع فريق من قادة الرأى الشرقى العربى منذ أكثر من عام فى لجنة التأليف والترجمة والنشر وتشاوروا فى ذلك كما تشاوروا فى غيره من ألوان التعاون الثقافى ورسموا لذلك خطة وشرعوا له نظاما . ثم أخذت وزارة المعارف تفكر فيه وتستعد للدعوة إلى مؤتمر عربى شرقى . والذى أرجوه أن يكون انعقاد هذا المؤتمر دوريا وأن يكون هذا المؤتمر متنقلا فى الأقطار العربية على نحو ما يسير عليه المؤتمر الطبى الذى أنشىء منذ حين .

وقد شهدت فى العام الماضى – ممثلا لوزارة المعارف – مؤتمر اللجان الوطنية للتعاون الفكرى ، فتحدثت فيه إلى المؤتمرين بأن مصر تستطيع أن تكون مركزًا من أهم المراكز لهذا التعاون الفكرى ، إذا نهضت بتبعاتها الثقافية نحو الأقطار العربية . ذلك لأنها بحكم مركزها الجغرافى وبحكم نهضتها الحديثة أصدق صورة لما تطمح إليه عصبة الأمم من هذا التعاون الفكرى الخالص الذى يقارب بين الأمم ويلغى ما بينها من الفروق ويرتفع بحياتها العقلية عن ألوان الخصومة وضروب النزاع . فالجامعة المصرية مثلا بيئة تلتقى فيها الثقافات الإنسانية كلها تقريبًا ، يحملها إليها أساتذة ممتازون من المصريين ومن الأوربيين على اختلاف أوطانهم ومذاهبهم فى السياسة والدين والاقتصاد . وهذه الثقافات كلها تلتقى وتمتزج وتصهر فى العقل المصرى الذى يسيغها ويتمثلها ويطبعها بعد ذلك

شيئا ما بطابعه المصرى الخاص . وهو قادر بعد هذا على أن يذيعها فى بلاد الشرق شرقية غربية عربية أوربية بريئة مما يفسد الثقافة عادة من التعصب والهوى .

وقد وقع هذا الحديث من المؤتمرين موقعا حسنا . فهل يقع هذا الحديث من المصريين أنفسهم موقعًا حسنا ، وهل يشعر المصريون بأن فرصة ذهبية كما يقال تتاح لهم الآن ؟ فلكل شر أثر حسن ، والشر أن حاجتنا إلى الأوربيين لا تزال شديدة فى التعليم ، والأثر الحسن لهذا الشر أننا نستطيع أن نكون رسل العلم والثقافة والأمن والسلم والتوفيق بين الشرق والغرب جميعا .

فإذا أردت مصر أن تنتهز هذه الفرصة فذلك يسير عليها لا يحتاج إلا أن تعنى بتقوية الصلة بينها وبين لجنة التعاون الفكرى فى جنيف ومعهد التعاون الفكرى فى باريس من جهة ، وبينها وبين البيئات والمعاهد العلمية فى الشرق العربى ، بل فى الشرق الإسلامى من جهة أخرى .

أتُوجَدُ ثَقَافَةٌ مِصْرِيَّةٌ ، ومَا عَسَى أن تَكُون ؟

٥٩

وبعد هذا الحديث الذى أراه قد طال أكثر مما قدرت له أن يطول تعرض مسألة لابد من الوقوف عندها والإجابة عليها . أتوجد ثقافة مصرية – وما عسى أن تكون ؟ فأما أنا فأجيب على هذه المسألة بأن الثقافة المصرية مهما تكن ضعيفة ومهما تكن ناقصة ومهما تكن محتاجة إلى التقوية والتنمية والإصلاح ، فهى موجودة ما فى ذلك وما ينبغى أن يكون فى ذلك شك . هى موجودة متميزة بخصالها وأوصافها التى تنفرد بها من غيرها من الثقافات . وأول هذه الصفات المميزة لثقافتنا المصرية أنها تقوم على وحدتنا الوطنية وتتصل اتصالا قويا بنفوسنا المصرية الحديثة كما تتصل اتصالا قويا عميقًا بنفوسنا المصرية القديمة أيضا . تتصل بوجودها المصرى فى حاضره وماضيه . ومن حيث إنها تصور آمالنا ومثلنا العليا فى الحياة فهى تتصل بمستقبلنا أيضا بل هى تدفعنا إلى هذا المستقبل دفعًا . ولك أن تنظر فى أى لون من ألوان العلم والأدب والفن التى تدرس فى مصر التى ينتج فيها العلماء والأدباء والفنانون المصريون ، فسترى أنها مطبوعة بالطابع المصرى القوى الذى لم يستطع الزمان أن يمحوه أو يعفى آثاره . سترى فيها هذا الذوق المصرى الذى ليس هو ابتساما خالصا ولا عبوسا خالصا ولكنه شىء بين ذلك فيه كثير من الابتهاج وفيه قليل من الابتئاس . وسترى فيه هذه النفس المصرية التى تجمع بين الجدة والقدم والتى تثب إلى أمام ولكنها تستأنى وقد تقف من حيث تستأنى وقد تقف من حين إلى حين لتنظر إلى وراء . سترى فيها الاعتدال المصرى الذى يشتق من اعتدال الجو المصرى والذى يأبى على الحياة المصرية أن تسرف فى التجديد . ثم سترها قد اتخذت اللغة العربية المصرية لها أداة مرنة أنيقة رشيقة لا تنبو عن الذوق ولا تتجافى عن الطابع ولا تكلف قارئها مشقة وجهدا ولا تقل إن اللغة العربية مشتركة بين مصر وغيرها من البلاد العربية ، فهذا حق ، ولكن لمصر مذهبها الخاص فى التعبير كما أن لها مذهبها الخاص فى التفكير والبـــلاد الأخرى تتأثر مصر ولعلها تتنافس فى تأثر مصر فى تفكيرها وتعبيرها .

وإذا أردت أن تحلل الثقافة المصرية إلى عناصرها الأولى فهذه العناصر بينة واضحة : هى التراث المصرى الفنى القديم ، وهى التراث العربى الإسلامى ، وهى ما كسبته مصر وتكسبه كل يوم من خير ما أثمرت الحياة الأوربية الحديثة . هى هذه العناصر المختلفة المتناقضة فيما بينها أشد الاختلاف والتناقض . تلتقى فى مصر فيصفى بعضها بعضا ، ويهذب بعضها بعضا وينفى بعضها من بعض ما لابد من نفيه من الشوائب التى لا تلائم النفس المصرية ، ثم يتكون منها هذا المزاج النقى الرائق الذى يورثه الآباء للأبناء وينقله المعلمون إلى المتعلمين . وأنا أعلم أن كثيرًا من رجال الثقافة الممتازين فى أوربا يضيقون بالثقافات الوطنية ويكرهونها ويودون لو لم تعرف الإنسانية إلا ثقافة واحدة . أنا أعلم هذا ولكنى أعلم أنه مخالف لطبيعة الأشياء . فمن عناصر الثقافة ما هو بطبيعته شائع عام مشترك بين الناس جميعًا ، ترى ذلك فى كثير من ألوان العلم . ومن عناصر الثقافة ما هو بطبيعته شخصى مقصور على هذه الأمة أو تلك ، يجرى ذلك فى كثير من ألوان الفن . ولكن طبيعة الحياة الإنسانية قد أتاحت للناس أن يخصصوا العام فيطبعوه بطابعهم ، وأن يعمموا الخاص فيجعلوه شركة بين الأمم جميعًا . فالعلم لا وطن له ، ولكنه إذا استقر فى وطن من الأوطان تأثر بأقليمه وبيئته ليستطيع أن يتصل بنفوس ساكنيه . والفن شخصى متأثر بمنتجه مصور لنفسه ومزاجه ، ولكنه لا يكاد يظهر حتى يكتسب من وجود نفسه صفة لا أدرى كيف تحدد ولكنها تصل بينه وبين الناس جميعًا وتقربه إلى نفوس الناس جميعًا . هذا التمثال المصرى وطنى خالص ممثل للطبيعة المصرية والذوق المصرى ، ولكنه لا يكاد يظهر فى ضوء الشمس حتى يعجب المثقفين جميعا ويتصل بنفوسهم . وهذا اللون من ألوان الموسيقى ألمانى أو فرنسى يصور فاجنر كما يصور ألمانيا ويصور برليوز كما يصور فرنسا ، ولكنه لا يكاد يوقع حتى يهز قلوب المثقفين جميعًا ويتصل بأذواقهم .

فليست الثقافة وطنية خالصة ولا إنسانية خالصة ، ولكنها وطنية إنسانية معا وهى فى أكثر الأحيان فردية أيضا . فمن ذا الذى يستطيع أن يمحو بتهوفن من موسيقى بتهوفن ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يمحو راسين من شعر راسين ؟

وإذن ففى مصر ثقافة مصرية إنسانية فيها شخصية مصر القديمة الهادئة ، وفيها شخصية مصر الباقية الخالدة ، وهى فى الوقت نفسه إنسانية قادرة على أن تغذو قلوب الناس وعقولهم وتخرجهم من الظلمة إلى النور ، وقادرة على أن تتيح لهم من اللذة والمتاع

مما يجدونه أو لا يجدونه فى ثقافتهم الخاصة . وآية ذلك أن هذه الثقافة تعلم كثيرًا من العرب غير المصريين وتلذهم ، وأن القليل الذى ترجم إلى اللغات الأوربية قد أعجب الأوروبيين وأرضاهم . فلنقنع أنفسنا إن لم تكن مقتنعة بأننا مهما نكن مبطئين فإن لنا شخصية قوية خصبة تنتج للناس ما يفيدهم ويمتعهم كما تنتج لنا ما يفيدنا ويمتعنا . وكل ما يجب علينا هو ألا نهمل هذه الثقافة فتضعف أو يدركها الجمود ، وأن نمنحها ما نملك من قوة وجهد لتنمو وتذكو ، فإن فى نمائها وذكائها نماء لنا وذكاء ، بل نماء لغيرنا من الناس وذكاء أيضًا .

حُلْمٌ وَأَمَـل

٦٠

وقد يحق لى بعد إملاء هذا الحديث الطويل الشاق ، ويحق للقارىء بعد الفراغ من قراءته أن يفرغ كل منا لنفسه فى مجلسه الذى يوافق فيه فراغه من الاملاء أو القراءة ، وأن يرسل نفسه لحظات على سجيتها ويخلى بينها وبين الأمل الواسع والحلم البعيد . فأما أنا فإنى أطلق نفسى من القيود التى يفرضها عليها الاملاء المنظم والتفكير المنسق ، أطلقها من هذه القيود وأخلى بينها وبين أمل لا يشبهه فى السعة والجمال والتنوع إلا هذا الأفق الذى أحسه يمتد أمامى رائعا بهذا الجو المشرق الصافى ، وبهذه الجبال الشاهقة تتوجها الثلوج وتقوم على سفوحها الغابات مختلفا ألوانها ، ويبرق بينها ضوء حار يبعث فى النفوس والأجسام حياة ، ويضطرب بينها نسيم عذب يبعث فى النفوس والأجسام نشاطًا . أخلى بين نفسى وبين هذا الأمل الواسع الحلو ، أخلى بينها وبين هذا الحل الرائع الجميل ، فأجد لذة قوية تخرجنى عن طورى أو تكاد ، عميقة تتغلغل إلى أقصى ضميرى أو تكاد . وإذا أنا فرح إلى أقصى غايات الفرح ، مبتهج إلى أبعد حدود الابتهاج ، سعيد إلى أرقى درجات السعادة ، لأنى أرى شجرة الثقافة المصرية باسقة ، قد ثبتت أصولها فى أرض مصر ، وارتفعت فروعها فى سماء مصر ، وامتدت أغصانها فى كل وجه ، فأظلت ما حول مصر من البلاد وحملت إلى أهلها ثمرات حلوة ، فيها ذكاء للقلوب وغذاء للعقول وقوة للأرواح . وهم يسعون فى هدوء واطمئنان وثقة إلى هذه الغصون النضرة الوارفة ، فيستمتعون بمنظرها ، ويأوون إلى ظلها ويستمتعون بثمراتها المتشابهة ، لأنها تصدر عن شجرة واحدة هى ثقافة مصر المختلفة ، ولأنها تحمل إليهم ألوان العلم وضروب المعرفة وصنوف اللذة الفنية على تنوعها ، فيتلون هذه الآية الكريمة التى اقتبس ترجمتها ، أندريه جيد وزين بها كتابا هو أبرع كتبه فى تصوير لذات الحس ، والتى أقتبسها أنا الآن لأن فيها أصدق صورة وأروعها وأبرعها للذة العقل والقلب والروح .

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقًا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾ .

نعم أرسل نفسى على سجيتها فى هذا الحلم الرائع الجميل فأرى مصر وقد بذلت ما دعوتها إلى بذله من جهد فى تعهد ثقافتها بالعناية الخالصة والرعاية الصادقة ، وأرى مصر وقد ظفرت بما وعدتها بالظفر به فانجاب عنها الجهل وأظلها العلم والمعرفة وشملت الثقافة أهلها جميعا ، فأخذ بحظه منها الغنى والفقير والقوى والضعيف والنابه والخامل والناشىء ومن تقدمت به السن ، وتغلغلت لذتها حتى بلغت أعماق النفوس ، وانتشر نورها حتى أضاء القصور والدور والأكواخ ، وشاعت فى مصر كلها حياة جديدة وانبعث فى مصر كلها نشاط جديد ، وأصبحت مصر جنة الله فى أرضه حقا يسكنها قوم سعداء ولكنهم لا يؤثرون أنفسهم بالسعادة وإنما يشركون غيرهم فيها . وأصبحت مصر كنانة الله فى أرضه حقا يعتز بها قوم أعزاء ولكنهم لا يؤثرون أنفسهم بالعزة وإنما يفيضون على غيرهم منها .

هذا حلم رائع جميل تمضى فيه نفس هائمة تحب مصر وأهل مصر فى هذا الأفق الغريب الجميل من آفاق الألب ، ولكنه حلم يسير التحقيق قريب التعبير . فإن مصر التى انتصرت على الخطوب ، وثبتت للأحداث وظفرت بحقها من أعظم قوة فى الأرض فى هدوء وأناة وثقة بالنفس وإيمان بالحق ، خليقة أن تنتصر على نفسها وتظهر على ما يعترض طريقها من العقاب ، وترد إلى نفسها مجدا قديما عظيما لم تنسه ولن تنساه .

بيير فول يوليو سنة ١٩٧٣

مورزين يوليو سنة ١٩٧٣

فهرس

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة بقلم الأستاذ الدكتور/ أحمد فتحى سرور	٥
مقدمة	١١
الثقافة والعلم أساس الحضارة والاستقلال . الاستقلال والحرية وسيلة إلى الكمال وسبب من أسباب الرقى . ينبغى الملاءمة بين حياتنا الحديثة ومجدنا القديم	١٥
مستقبل الثقافة بمصر مرتبط بماضيها البعيد . أمصر من الشرق الثقافى أم من الغرب الثقافى ؟ العقل المصرى متصل منذ العصور الأولى بشعوب بحر الروم	١٨
العقل المصرى ليس شرقيا . العقل المصرى والعقل اليونانى وتأثر كل منهما بالآخر . المنافع العملية قوام سياسة المسلمين فى عصورهم المختلفة . هذا التصور هو قوام الحياة الحديثة فى أوروبا	٢١
شدة اتصال مصر باليونان فى القديم وتأثرها بالعقلية اليونانية والفلسفة اليونانية . ليس بين الشعوب التى نشأت حول بحر الروم فرق عقلى قوى	٢٥
مصر والإسلام . تشابه الإسلام والمسيحية فى علاقتهما بالفلسفة وتأثيرهما فيها.	٢٦
مصر بعد تغلب الترك . حمايتها للعقل الإنسانى فى عهد اليونان وحمايتها له بعد غارة الترك . العقل الإسلامى كالعقل الأوربى يرد إلى عناصر ثلاثة : حضارة اليونان ، حضارة الرومان ، الدين	٢٩
مصر والحضارة الحديثة . المثل الأعلى للمصرى فى حياته المادية هو المثل الأعلى للأوربى . حياتنا المعنوية على اختلاف ألوانها أوربية خالصة . نظام الحكم فى مصر وتأثره بالنظم الأوروبية . نظم التعليم فى مصر ومسايرتها للنظم الأوروبية . مذاهبنا القديمة فى التعليم وأخذ الأوربيين عنها فى القرون الوسطى	٣١
تقصير مصر فى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة . المصرى خلق للعزة والقوة . لا فرق بين المصرى والأوروبى فى العقلية ، المساواة فى الحقوق والواجبات ينبغى أن تكون نظام حياتنا الداخلية والخارجية	٣٧
وجوب الصراحة والجراءة فى الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية فى كل نواحى الحياة . .	٣٩

الموضـــــوع	الصفحة
إشفاق بعض الناس من الدعوة إلى هذا الرأى . لا خوف من الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة . مسايرة الإسلام للحضارة فى العصور المختلفة	٤٣
لا خطر من الاتصال القوى الصريح بأوربا على شخصيتنا وماضينا	٤٩
مادية الحضارة الأوربية . روحية الشرق وحضارته . موقفنا بين روحية الشرق وحضارته وبين حضارة الغرب.	٥١
الدولة وشؤون التعليم . نهوض الدولة وحدها بشؤون التعليم . جهود الأفراد والجماعات فى سبيل التعليم . التعليم المصرى والأجنبى وتنوع كل منهما . إشراف الدولة على شؤون التعليم من أهم الوسائل لحياطة الاستقلال والذود عنه . وجوب مراقبة التعليم فى المعاهد الأجنبية . فرض تعليم لغة البلاد وتاريخها . التعليم الدينى وضرورة فرضه على المعاهد الأجنبية كما هو ضرورى فى المدارس المصرية . التعليم الحر وحظه من الرقابة . التعليم الدينى فى الأزهر . يجب أن يكون هناك قدر مشترك من مناهج التعليم فى جميع المدارس مصرية أو أجنبية أو معاهد دينية . الأزهر ومراحل التعليم فيه . وجوب إشراف الدولة على التعليم العام فى جميع المعاهد . القومية الإسلامية والقومية الوطنية	٥٤
الديمقراطية والتعليم الأولى . التعليم الأولى ركن أساسى من أركان الديمقراطية الصحيحة . مسؤولية الدولة عن حماية جسم الصبى كما هى مسؤولية عن تكوين عقله وقلبه	٦٥
وجوب العناية باعداد المعلم الأولى . إصلاح مدارس المعلمين الأولية . مهمة التعليم الأولى أخطر من محو الأمية . شروط إعداد المعلم الأولى وحقوقه وواجباته	٧٠
المدارس الأولية : سياسة بناء المدارس الأولية وتأثيثها . ضرورة الاقتصاد ومراعاة ظروف البيئة	٧٥
مرحلة التعليم الأولى لا تكفى لمن انقطعت به السبل عن إتمام التعليم العام . وجوب تزويد الصبية بحظ من الثقافة إلى جانب ما يزاولون من عمل . أثر ذلك فى تكوين شعب يشعر بالكرامة والعزة ويدرك الواجب	٧٧
خطر التعليم الأولى وأهميته : الأمة وقادة الرأى . ضرورة أن يكون المشرفون على التعليم الأولى من صفوة الأمة وخلاصة النابهين فيها	٨٠
التعليم الثانوى : اختلاط الأمر فى مرحلته واضطرابه . متى يبدأ ؟ الغرض من التعليم الثانوى . مكان التعليم الابتدائى من التعليمين الأولى والثانوى . وجوب زواله من حيث كونه وحدة مستقلة . ضرورة الملاءمة بين التعليم الأولى والثانوى . متى يجب أن ينتهى التعليم الثانوى...	٨٢

الموضـــــوع الصفحة

مشكلات التعليم العام : إلى من يتجه هذا التعليم ؟ إباحته للمستطيعين ومن يقدر من الفقراء على الانتفاع به . خطر قصر التعليم العام على طبقة دون أخرى . الديمقراطية الحديثة وحق الفقراء فى التعليم العام ٨٧

هل هناك خطر من التوسع فى التعليم العام ؟ . الديمقراطية تسوى بين الطبقات فى حرية التعليم كما سوت بينهم فى الحقوق والواجبات . علاج البطالة لا يكون باشاعة الجهل بين الناس أو الحد من نشر التعليم ، إنما يكون باصلاح النظام الاجتماعى . لا خطر الآن من أزمة المتعلمين المتعطلين . نحن والأجانب . وجوب المساواة بيننا وبينهم فى المعاملة . علاج الأزمة إنما يكون بتحقيق الصلة بين التعليم النظرى والحياة العملية ٩٢

وجوب مراقبة الدولة للأطفال فى مرحلة التعليم العام والنصح لذويهم بتوجيههم الوجهة الصالحة . نجاح هذه التجربة فى فرنسا ٩٩

ازدحام المدارس بالتلاميذ يضعف من العناية بهم ومراقبتهم خطر ذلك على التعليم . حاجة الشعب إلى التعليم الصالح ليست أقل من حاجته إلى الدفاع الوطنى المتين . ليست مهمة المعلم التعليم فحسب بل واجبه تربية الطفل وتهيئته تهيئة صالحة ١٠١

حقوق المعلم : الثقة به . ليس المعلم أداة تنفيذية فقط . الصلة بين المعلم والتلميذ . وزارة المعارف ورجالها الفنيون . السياسة والتعليم . تبعة رجال الوزارة الفنيين فى اضطراب التعليم . صلة الديوان بالمدارس . المركزية وخطرها ١٠٧

وجوه إصلاح التعليم :

« أ » إنشاء مجلس التعليم الأعلى .

«ب» إعادة تنظيم مراقبات التعليم . إنشاء مجالس إدارة صغيرة . تقرير مقدم إلى معالى مراد سيد أحمد باشا وزير المعارف الأسبق بشأن الصلة بين التعليم الثانوى والعالى .

«جـ» إصلاح التفتيش ١١٤

الامتحانات : المبالغة فى قيمتها . اعتبارها غاية بعد أن كانت وسيلة . خطرها . وجوب إلغاء امتحان النقل إلا إذا دعت إليه ضرورة . الثقة بالمعلم . تيسير الامتحانات العامة ١٢٤

القراءة الحرة . إعراض التلاميذ والمعلمين عنها ١٣٠

الكتب التعليمية المقررة : خطر احتكار التأليف . سياسة شراء الكتب وضررها . مكتبات المدارس والعناية بها . حرية واختيار الصالح من الكتب ١٣٣

الموضـــــوع	الصفحة
مشكلات التعليم الخاصة : غاية التعليم العام والغرض من إنشائه . كيف كانت مصر تتصور التعليم قبل الاحتلال . وبعده الغرض الأسمى من التعليم العام . الخصومة بين الجامعة ووزارة المعارف : ضرورة اشتراك التعليم العالى فى تنظيم التعليم الثانوى . ليس الغرض من التعليم العام إعداد الطلاب للتعليم العالى بل الغرض الأسمى من التعليم العام . الخصومة بين الجامعة ووزارة المعارف : ضرورة اشتراك التعليم العالى فى تنظيم التعليم الثانوى . ليس الغرض من التعليم العام إعداد الطلاب للتعليم العالى بل هناك غايات أخرى	١٣٧
الإيمان بمهمة التعليم العام والشعور بخطره وقدسيته فى نفوس المعلمين والمشرفين عليه .	١٤٤
ماذا يعلم فى المدارس العامة ؟ وجوب العناية بجغرافية البلاد وتاريخها . ما يشترك فيه التعليم الأولى والتعليم العام . أوجه الاختلاف . العناية باللغة العربية . متى يبدأ بتعليم اللغات الأجنبية ؟	١٤٩
كم لغة أجنبية يجب أن يتعلمها التلميذ ؟ حاجتنا إلى التزود من الثقافة الأوربية على اختلاف أنواعها ومصادرها . العناية باللغات المختلفة يساعد الجامعة على أداء مهمتها	١٥٥
اليونانية واللاتينية . الجامعة واللغات القديمة . علة ضعف تعليمها . ضرورة فرضها على من يريد العلم الخالص والتخصص فيه . تقريرها فى المدارس العامة وأسباب ذلك . الجدل بين أنصار تعليمها وخصومه	١٦١
سبل تعليم اللغتين فى التعليم العام . فرضه على طائفة خاصة . تنويع التعليم وتقسيم المواد إلى إجبارى واختيارى . اتفاق هذا وحالة كليات الجامعة	١٧٣
تعليم اللغة واللغات الشرقية . الغرض من تعليم اللغة العربية فى المدارس العامة وغيرها . ليست اللغة العربية وقفًا على فريق معين أو معهد معين . الأزهر واللغة العربية . حق الدولة فى إعداد معلم اللغة العربية وسبيلها إلى ذلك	١٧٦
ما اللغة العربية التى تتولى الدولة تعليمها فى المدارس ؟ . إصلاح علوم العربية وتيسيرها . رأى الداعين إلى الاصلاح ورأى معارضيهم . الإصلاح ضرورة فى هذا العصر . يجب أن يشمل الإصلاح ما يعصم من الخطأ قراءة وكتابة . إصلاح الكتابة وسبيله	١٨٢
قصر تعلم النحو على القدر الضرورى وعرضه فى صورة أدبية . دراسة أدب اللغة وتثقيف العقل . دراسة أطراف من الآداب الأجنبية باللغة العربية.	١٩٠
التوفيق بين هذه البرامج وطاقة التلميذ . العدول عن التفاصيل غير الضرورية . منحهم الزمن الكافى	١٩٥

الموضـــــوع	الصفحة
التربية البدنية وفائدتها	١٩٧
إعداد المعلم للقيام بالتعليم العام : تنوع ثقافات المعلمين وتعدد إجازاتهم الدراسية . مدارس المعلمين المتوسطة . مدرسة المعلمين العليا . البعثات . الجامعة المصرية . معهد التربية للبنين . معهد التربية للبنات . تقرير عن معهد التربية . الصلة بين المعهد والجامعة	١٩٨
إعداد معلم اللغة العربية . تعدد المعاهد التى تخرج معلم اللغة العربية : الأزهر ، دار العلوم ، كلية الآداب . اضطراب الأمر بين المعاهد الثلاثة . تقرير يبين النظام الذى ينبغى أن يتخذ لإعداد معلم اللغة العربية . لجنة إصلاح دار العلوم وقرار وزارة المعارف	٢١١
اضطراب وزارة المعارف فى سياسة إعداد المعلمين أمور التعليم فوق السياسة . الوزارة والأزهر . الوزارة ودار العلوم . دار العلوم بعد الإصلاح . الوزارة والتعليم العالى	٢٢٤
تخصص المعلم فى المادة . الشهادات العليا لا تكفى للتخصص . امتحان مسابقة لنقل المعلم من الابتدائى إلى الثانوى	٢٢٨
إعداد دروس بالجامعة للمعلمين تعدهم لامتحان المسابقة . مكافأة الناجحين . أثر ذلك فى رفع مستوى التعليم	٢٣٠
التعليم العالى : ما هو ؟ ما الأغراض التى ترجى منه وتطلب إليه ؟ اختلاف الناس فى هذه الأغراض . كيف يفهمها رجل الشارع ؟ كيف يفهمها الرجل المثقف ؟ المثل الأعلى الذى يجب أن نتصوره للتعليم العالى . كليات الجامعة . تهيئة الشباب للعلم النظرى والحياة العملية . تقرير كلية الآداب فى إعداد الشباب للحياة العلمية الخالصة والحياة العملية الناجحة... .	٢٣٢
معاهد العلم ليست مدارس فحسب ، بل هى بيئة للثقافة بأوسع معانيها . التعاون بين الطلبة والأساتذة فى سبيل تحقيق المثل الأعلى . الجامعة يجب أن تكون مستقر الحضارة الراقية...	٢٤٦
ما تحتاجه الجامعة لتنهض بهذا القسط من التعليم والثقافة . استقلال الجامعة المالى والعلمى . حقها فى الاشراف العام على شؤون التعليم وما يتصل بها من الامتحانات . وجوب الاحترام الفعلى لهذا الاستقلال . حاجتها إلى المال وواجب الأغنياء	٢٤٩
مشكلات التعليم العالى . مصادرها : فنية ، مالية ، إدارية . تبعة الحكومة . حق الجامعة فى حل ما يعرض من مشكلات وقدرتها على ذلك . أمثلة لهذا . جهود كلية الآداب ومحاولاتها : اللغات السامية . الدراسات الإسلامية . معهد أصوات ، الدرجات الجامعية لا تكفى للتهيئة لشغل مناصب الدولة بل لابد من المسابقة . الفرق بين الامتحان الجامعى وامتحان المسابقة...	٢٥٣

الموضـــــوع	الصفحة
التعليم الدينى فى الأزهر . بعد أثر الأزهر فى تكوين الثقافة فى مصر والعالم الإسلامى . وجوب ملاءمة هذه الثقافة لحياة الشعب وحاجاته . الأزهر مصدر الحياة الروحية للمسلمين الأزهر والثقافة الحديثة . مجاراة الأزهر للتطور . حق الأزهر الاشتراك فى الحياة العملية لا الاستئثار بها . امتيازه بالتعليم الدينى . رجال الدين فى مصر وأوربا . إشراف الدولة على التعليم فيه يهيء التقارب بين النوعين : المدنى والدينى	٢٦١
التعليم الدينى للأقباط . العناية بإعداد رجال الدين المسيحيين . اتصال القسيسين بالأقباط أشد من اتصال رجال الدين بطبقات المسلمين . الكنيسة القبطية مصدر ثقافة دينية لغير المسلمين تعاون الدولة والكنيسة القبطية على الإصلاح	٢٦٦
ليست الثقافة محصورة فى المدارس والمعاهد . تعاون الحكومة والشعب على نشر هذه الثقافة . وجوب تشجيع الهيئات العلمية والأدبية والفنية وتشجيعها . أثر نشاطها فى حياتنا العلمية والعملية والخلقية	٢٦٩
الإنتاج العقلى . الترجمة والنقل من اللغات الأوربية وأثرهما فى توجيه الثقافة . إنشاء مكتب للترجمة وتنوع أعماله	٢٧٤
قلة أنتاج المثقفين وأسبابها . نشأتهم فى بيئة معادية للثقافة وتحريرهم لأنفسهم أولا . ثباتهم لمقاومة الشعب وتنكر السياسة أحيانا . قلة عدد القارئين ورغبتهم عن القراءة	٢٧٧
حظ الأديب فى مصر وغيرها . وجوب تشجيع الأدباء على الإنتاج . حرية الرأى . الصحافة والسينما والراديو وخطرها . وجوب إشراف هيئات منظمة عليها	٢٨٤
خطر السينما على التمثيل . وجوب حمايته والعناية به	٢٨٦
واجب مصر نحو الأقطار العربية . سبيل نشر الثقافة المصرية فى هذه الأقطار . الكتب والمطبوعات . التعاون الثقافى بين مصر والأقطار العربية وأثره . تعليم أبناء هذه الأقطار فى مصر . إنشاء مدارس مصرية فى الأقطار العربية	٢٨٧
التعاون على تنظيم الثقافة وتوحيد برامجها بالقياس إلى الأقطار العربية كافة . مصر مركز من أهم مراكز التعاون الفكرى	٢٩١
أتوجد ثقافة مصرية . وما عسى أن تكون ؟ مميزات الثقافة المصرية . الثقافة إنسانية ووطنية معا	٢٩٣
حلم وأمل	٢٩٦